(Arab)
PQ3989
.D52M412
1961

(Arab)PQ3989.D52M412.1961
Dib, Mohammed
Nawl

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 054331176

وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم السوري

مديرية التأليف والترجمة

تأليف : محمد ديب

ترجمة : سامي الدروبي

مراجعة : بديع الكسم

النول

سلسلة الأدب الجزائري

٣

Dib, Mohammed
١٧٧٧٠

وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم السوري
مديرية التأليف والترجمة

النَّوْل

تأليف
محمد ديب

ترجمة
سامي دروبي

مراجعة
بديع الكسم

٣ - سلسلة الأدب الجزائري

الناشر
مكتبة أطلس

(RECAP)
(Arab)
PQ 3989
.D52 M412
1961

الجزء الاول

— ١ —

أطار عمر الستارة التي تسد مدخل الغرفة بقفا يده ، ودخل ، ولكنه ما ان اجتاز العتبة حتى توقف لا يجرؤ على التقدم • وظل جامدا في مكانه تهزه الرعشة ، كان يحس أن مِزقاً من الليل قطّعتها الامطار ما تزال في قرارة عينيه • ان ثيابه المتهدلة عليه تقطر مبللة ، ونعلاه المنقوعتان الرخوتان تطبعان على سدة الباب رسوما واسعة وحلة •

انتقلت نظراته من أمه الى أختيه • كانت أختاه ترمقانه في عبوس يسمّن وجهيهما • وكانت أمه عيني تحتل ركنها المألوف ، وقد تهدل على عينيها منديل عتيق مهترىء • انها تبدو غارقة في أحلام عميقة • وكانت الجدران العارية المطلية بالكلس تلتمع تحت أشعة نور الكهرباء •

فلما رأته ، نهضت بوثبة واحدة ، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة :

ـ ما ابني هذا بابن ، بل كلب من كلاب الشوارع •

كان واضحا أنها قد قضمت لجامها ، ولبث عمر ينظر اليها وهي تصرخ صراخا ما ينفك في اشتداد :

ـ نعم ، كلب من كلاب الشوارع ، كلب من كلاب الشوارع •

ودفعت حوافي منديلها التي تزعجها ، وتابعت تقول :

ــ أين كنت الى هذه الساعة ؟ أين ؟ أين ؟ قل لي .. هاي هاي .. أأمزق وجهك أم أمزق وجهي ؟ لقد نبت فيك ريش الشر .. أتظن أنك أصبحت رجلا ؟ أتظن أن كل شيء قد اصبح مباحا لك ؟ يمينا لن يكون هذا .. ما تزال بي قوى تكفي لتحطيمك .. أنا هنا الآمرة الناهية ، وستظل خافضا رأسك ما احتجت الى البقاء تحت هذا السقف . هل فهمت ؟ اما ان تعود الى البيت في وقت مبكر ، واما أن ترجع الى الشارع .

لم يكن الفتى يلاحظ قطرات الماء التي تسقط من ثيابه وتشكل بركة عند قدميه . كان قلبه يخفق خفقانا سريعا . ترك لأمه أن تفرغ كل مافي صدرها من كلام . ليس هذا كله بجديد .

وقالت الام آخر الامر منذرة :

ــ لسوف تسلّم بالاقلاع عن هذه الحياة التي تعيشها .

كان عمر يمضي في كل مساء يجمع بعض نثارة الفحم حول المحطة بين سكك الحديد . هذه هي السبيل الوحيدة الى قليل من الوقود في البيت .

ونضا عنه حقيبته دون أن ينبس بكلمة . انه لايرغب الا في شيء واحد : أن يدفىء يديه المتجلدتين .

وتذكر عالم الليل الواسع الذي انبجس منه . كان الليل قد خيم منذ مدة طويلة ، وكان المطر ينهمر ، ينهمر مدرارا .

وعادت الام الى مكانها ، وأمرت ابنتها عيوشة أن تضع المائدة ، فقامت الفتاة ، فأتت بالمائدة ، ووضعت عليها قدرا ونصف رغيف من خبز أسود • وأخذ الاربعة يغمسون أصابعهم في المرق صامتين ، فما هي الا لحظات حتى كانوا قد التهموا عشاءهم ، وهو فجل مطبوخ بأمعاء ، فتولت الاختان رفع المائدة•

ورقدوا بعد قليل :

لا يستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة في الظلام الدامس • لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد الى جفنيه سبيلا • لا شك أن وقتا طويلا قد انقضى على هذه الحال • كان البرد ينفذ في جسمه كالسكين ، فيبقيه نصف يقظان • وفي رأسه كان يهدر سيل من الصور •

هاهم أولاء مرتلو القرآن يسيرون امام جنازة • كان عمر يمشي في اثرهم مؤمنا بأن كل خطوة يخطوها وراء حملة النعش تسر الميت • ان الموتى في هذه الايام كثر • وعمر لا يفوت من الجنائز الا تلك التي لا يصادفها أثناء جولاته البعيدة • انه يشعر نحو كل واحد من هؤلاء الموتى بشيء من عطف •

وكان قد حفظ فقرات من نهج البردة ، فهو يتلوها مترحما على أرواحهم •

وها هم أولاء المتسولون الشاحبون المهزولون يستحثون الخطى تحت المطر المنهمر • وهذه صور أخرى تجتاز ذهنه أيضا•

لقد قالت له عيني منذ اكثر من سنة : « تعلم مهنةً من المهن ، فلن تجديك كتبك نفعا » • كان ذلك في نهاية الصيف الذي سبق الصيف الماضي • كانت عطلة الصيف قد انتهت ، فأذعن الفتى لرأي أمــه ، ولم تدس قدماه المدرسة منذ ذلك الحين • لقد طالما رددت أمه على مسامعه أنه أصبح في الثالثة عشرة من عمره ، وأن كل ساعة من تعطل فهي وقت ضائع • وكانت تضيف الى ذلك قولها : « لقد صبرت كثيرا » •

ومن كثرة ما سخنت أذناه من اللوم والتقريع ، بدأ يعمل صبيا في دكان أحد البقالين ، ولكن السلطات لم تلبث أن أغلقت الدكان ، وزجت بصاحبها في السجن •

لقد صاحت يومئذ عيني تقول : « يعاقبون صغار المتلاعبين ، ويتركون كبارهم ••• » •

وكان لا بد من البحث عن عمل آخر للفتى • ولكن سنة برمتها قد انقضت دون ان يعلق بالصنارة شيء • ليس عمر الآن الا صبيا معترا ، يتسكع في الشوارع ، لا يلجمه لجام ، ولا يبالي الوقت ، ولا يكترث للجو ، ولا يحفل بتقريع أمه •••

أصغى عمر الى الاهتزاز الذي يزعزع البيت • الليل يهدر هديرا قويا • والمطر ما يزال يهطل • ووراء هذه الهمهمة يقصف الرعد ، فكلما شق السماء مرة ، تزلزل البيت ، فتراءى للمرء أنه متداع متى قصف الرعد مرة أخرى •

أحس عمر فجأة أن هناك شيئا يتربص في الظلمات • شعر من

ذلك بقلق . وذكره هذا بأمه التي تشم الشقاء في كل شيء ، وتكتشفه بحدسها المزّق في كل شيء .

قال لنفسه : « ما بال أمي التي ترى العالم مشحونا ينذر السوء ودواعي التطير (اذ تؤول كلمة عارضة ، او حكمة في الاذن أو رائحة خفيفة في الجو ، على ما يشاء لها الهامها) ما بال أمي لا تنتبه الا الى علائم الشر وما يمثل الكوارث ؟ » .

فما كاد يكمل تمتمة هذه الكلمات حتى انتصبت أمه واقفة قربه . قال يتوسل اليها قلقا : « أرجوك يا أماه » . واستيقظ . يا للحنان الذي ظهر في قوله : أرجوك يا أماه . ما كان لعمر أن يصدق أن من الممكن أن يظهر في كلامه هذا الحنان . كانت الكلمة تهتز في نفسه بقوة تهوله .

أصبح الآن لا يأمل أن يعاوده النوم . وكان قد ارتفع صوت آخر في ظلام الليل يقول :

« لا تخافي يا أمـاه ، أضرع اليك .. أنا أعرف أن هـذا الخوف يطوف طائفه في النفس أحيانا . أنت تسمينه القدر . ولقد طاف بنفسك منذ لحظة على كل حال . شعرت به من الحزن الذي استولى عليك . ابتهل اليك يا أمـاه أن تعرفي أن هذه القوة لا وجود لها ، وأن الحياة ليست جحودا . لا تكفري بما في نفسي باسم ما تحملينه من عاطفة الامومة » .

هل التوسل هو الذي يمكن أن يلين ارادة عيني ؟ لم يستطع عمر ان يمتنع عن ترديد هذا التساؤل على نفسه . وكانت حدود

الغرفة تتراجع أمام عينيه ، بينما أشتات أفكار أخرى تطير من رأسه ... عصافيرَ مبعثرة ، تهوِّم الى غير نهاية ، خفيفةً خفيفةً ، ليس لريشها وزن ... وكانت العصافير تمحى بدورها ، وتجري على جسمه ظلالا متهربة ...

لقد أخذته سنة من نوم . وكان دوي العاصفة يفنى في فضاء الليل . كان المطر يهدر بغير انقطاع ، وكانت رياح شديدة بعيدة تهز أركان المدينة . وفجأة خيل اليه أنه يسمع ... انتفض قلبه . لا شيء . لقد انقطع المطر . وخيم على دار سبيطار هدوء لاتعكره نسمة . ان الهواء يحمل برودة رطبة ، شعر الصبي بأنفاسها تتسلل الى الحجرة من تحت الباب . عاد الى الصبي وعيه ، فتذكر أن عيني وبنتيها يرقدن جنبا الى جنب قربه ، فوق فرش القش الممدودة على الارض . كان عمر ، الراقد على مقربة من أمه ، يتلقى منها بعض حرارة . رد اليه هذا شيئا من الثقة . ونام من جديد .

* * *

— ٢ —

كان بخار متموج قد انبجس من الارض ، فسرعان ما سد جميع الطرق • سكنت الريح وانقطع المطر •

لقد احتضن الضباب المدينة طوال الليل ، حتى اذا طلع النهار في غد ، كانت شمس فتية تسطع في سماء كانون الثاني • انها تلعق الشوارع • العربات تجري على الارض صاخبة • وأغان تنبع من حوانيت الخشب • ان كل شيء يبدو منغما ، حتى النداء الابح الذي يخرج من صدور الباعة المتجولين •

ما من شيء كان يدع للمرء أن يتنبأ بعذوبة كهذه العذوبة الفجة • لقد نبت هذا الانتعاش الفرح في عالم أسود • ترى هل عزم الشتاء على أن يهجر سرباله الثقيل ؟ هذا هو الشتاء الثالث بعد اعلان الحرب • ان الامل في أيام أفضل وأعدل قد هدهد أهل تلمسان •

وفي هذه الاثناء انما أصبح الناس يلتقون بأولئك الاشخاص الذين يشبهون أن يكونوا اشباحا مخيفة • ان هذا الجمهور من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال يجتاح جميع الاحياء شيئا بعد شيء • ان اكثرهم من اصحاء الابدان الذين ليس بهم آفة • وكان هؤلاء البؤساء التائهون لايحسون نظرات السوء التي تمتلىء بها أعين السكان عند مرآهم • كان جوابهم على

المعاملة الخشنة التي يستقبلهم بها الناس ، ويلاحقهم بها رجال الشرطة ، هو أن لايحفلوا ولا يبالوا • ان قوة يجهل المرء شدتها تدفعهم الى امام •

كذلك انتشروا هذا الانتشار المحروم من الحياة حرمانا غريبا ، انتشروا في تردد ، وفي عياء وكلال •

تساءل الناس : أليسوا يتدفقون منذ مدة من الوقت ؟ ان الشوارع الكبرى والطرق العريضة والميادين تفيض بهم • لاشك في أنهم تسربوا الى المدينة بفضل الايام الماطرة الماضية !

لم يعرف أحد في ذلك الوقت ما الذي كان يجذبهم الى المدينة !• أتراهم جاءوا يلتمسون ما قد يسد رمقهم ؟••• ولكنهم اذا فرضنا أنهم وجدوه ، لايغيبون ولا يعودون الى الكهوف التي لفظتهم • انهم يلتصقون بقلب المدينة • لذلك كان الناس لايفهمون من الامر شيئا • أكان يحدوهم نوع من حب الاطلاع ؟ لا ••• ذلك أنهم كانوا ، حين يغدون ، لا يزيدون على أن يستقروا حيث يتراءى لهم ، ثم ينظرون الى كل شيء بعيون منطفئة •

على أن هؤلاء المتسولين كانوا أناسا رقاقا لا يسيئون الى أحد • يجب أن نعترف بأنهم لايحدثون شيئا من أذى • انهم ينظرون الى الكبار والصغار الذين يمرون بهم ، في هدوء بغير اكتراث • انهم ينتظرون • ولكن ماذا ينتظرون ؟ لا يعلم أحد ذلك • ثم يستأنفون طوافهم في الارض على غير هدى • وينامون في المكان الذي يفاجئهم فيه هبوط الليل • فاذا هبت ريح شديدة

شدوا أسمالهم الرثة على أجسامهم ، ووضعوا جماجمهم على حجرة أو درجة ، وناموا .

أصبح الناس يلتقون بجموع متزايدة منهم ، في الطرق المسدودة ، وتحت الافاريز ، وحول المتاريس ، وأمام الحمامات العامة ، وعلى سلالم السوق المسقوفة ، وعند أسوار « مشوار » التركية ، وقدام أروقة الخانات . كانت شخوصهم المتفككة ، السمراء ، الوسخة ، تتسكع في جميع الشوارع . انهم يجرون أنفسهم في كل مكان . وكان بعضهم يحمل على الظهور بعضا آخر أصبح عاجزا عن مواصلة السير . حتى اذا قطعوا بهم بضع خطوات جلسوا على الارصفة لاهثين . كانت المخازن لا تضم في واجهاتها الا أشياء لافائدة لهم منها . ومع ذلك ، فهنالك انما كانوا يستقرون وينطفئون انطفاء الشعل الشاحبة .

وكان يحس المرء من حين الى حين أنهم يبحثون عن شيء . ان حركاتهم اشبه بحركات زحف لايدرك . ثم لايلبثون ان يعودوا الى سكونهم . انهم لايمدون جميعا أيديهم . وما لم يتعرض لهم أحد من سكان المدينة بسوء ، فيضطرهم الى التزحزح ، فانهم يظلون قابعين في مكانهم ، متجمعين على أنفسهم ، يرمقون بابصارهم جموع الناس وهم يتنقلون .

وكان بعضهم يظل نائما بغير انقطاع ، متلففا كالقنفذ ، فاذا أراد أحد أن يحسن اليه كان لابد له أن يميل عليه ليدس له القرش في راحة يده . ان هؤلاء المتسولين الجدد لايسمع أحد

أصواتهم . من هذه الناحية ، طرأ اذن شيء من تبدل .

أتراهم كانوا يجيئون من الضواحي المحرومة الفقيرة ؟

ربما ... ربما كانوا يجمعون بضعة دريهمات ، أو بعض قشامات الطعام ، من مجرد ارتياد المدينة . ولكن لماذا كانوا لايعودون بعد ذلك ؟ ما بالهم يتشبثون بالمدينة كأنهم ملتصقون بهذه المباني التصاقا لا فكاك منه ؟

وسرعان ما أصبح أي حاجز من الحواجز عاجزا عن صد هذه الاندفاعة القوية التي تقود هؤلاء القوم الى أكثر الاحياء حشمة ، والى الشوارع التجارية ، والاجزاء الراقية من المدينة . وما يزال الناس لايدركون ما الذي يجنيه هؤلاء الرحل من التردد الى هذه الاماكن . انهم لم يخلقوا لها ، ولا يمكن أن تناسبهم . أتراهم كانوا يدركون ذلك على أقل تقدير ؟

المدينة غارقة في نور ساطع ، وكأن الطبيعة تنوي أن تطيل هذه الهدنة المضيئة . كان البرد قارسا ، ولكن الشمس تتلألأ .

والاسر التي يتعاطى جميع أفرادها مهنة الحياكة كانت في هذا العهد ، ربما أكثر من أي عهد مضى ، لايحصى عددها : الرجال معلقون وراء أنوالهم العتيقة ، والنساء تندف الصوف أو تغزله . وكانت عيني نفسها تحصل من حين الى حين على جزز ملطخة بالدهن مثقلة بالتراب والوشل والبعر ، فتنظفها وتهيئها ، وتحمل الى سوق الغزل ، بعد عدد من الايام يقل أو يكثر تبعا لما تطيقه قواها ، رطلا أو رطلين من الخيوط الناعمة اللينة اللون .

على أن المشهد المشجع المنعش انما كان مشهد المعامل. ان هذه المعامل كانت منذ زمن غير بعيد تعمل في تثاقل . من ذا الذي لا يتذكر ؟ تشهد على ذلك تلك الاسحار التي كانت فيها عيني تقف في سوق الغزل مع كثيرات غيرها ، وهي تنتظر في ملل ، عسى أن تجد زبونا يشتري منها غزلها . ولكن ما ان أخذت صفارات الانذار تولول ، حتى ألمت بالمعامل حمى مسعورة . فما من حي ، وما من مكان ، بل مامن ضاحية الا واهتزت بنشاط الحائكين ، فحيثما تذهب يستقبلك اصطفاق أمشاط ، او اصطخاب مكاكيك . الانوال تلتهم الغزل وتسأل هل من مزيد ، فلا شيء يشبع جوعها الشديد المجنون الى هذا العلف الوافر : الصوف .

ان المدينة القديمة التي كانت مدينة أصحاب حرف ، تضحي الآن بغفوها العتيق وتستحيل الى مايشبه مدينة صناعية . ومنذ انطلق هذا اللهب ، عدل الحائكون من تلقاء أنفسهم عن تعسفهم القديم ، فهم الآن ينتزعون من أيدي البائعات أيّ صوف مهما يكن شأنه .

وتكاثرت المناسج والمعامل تكاثرا مباغتا ، بينما كانت تسافر الى فرنسا بغير توقف سجاجيد وأغطية .

كان الالمان يأخذون في نهاية الامر جميع هذه الانسجة ، يشترونها بالوزن ولا يعنيهم النوع . وروى بعضهم أن كل قطعة من هذه القطع كانت متى وصلت اليهم تمزق وتسحق وتحول الى مادة خام .

— ٣ —

ما يزال الجيش اللجب المتحرك من الجياع يزدحم في الشوارع والازقة بغير انقطاع • لكأنه يشق الارض ويخرج من أعماق مجهولة • غمار من الناس مخجل ، يتفلى في الهواء الطلق ، عارضا أعضاءه المنهوكة ، وقروحه القائحة ، وأعينه المحتقنة بالتراخوما • ان رمادا باردا قد نثر على هذه المخلوقات التي لا هوية لها • وهم يتسكعون قليلا هنا ، وقليلا هناك ، ولكنهم لايمضون قط الى أمكنة بعيدة • وليس يحفل بعضهم ببعض ، فهم لايجتمعون ، الا اذا وزع طعام أو وزعت قروش ، فانهم يشكلون عندئذ حلقة ما تنفك تضخم • حتى اذا طردهم أحد في مثل هذه اللحظة تفرقوا طائعين •

وساء الجو بعد بضعة ايام ، فاذا السماء تتبدل تبدلا كاملا على حين فجأة فتصبح قاتمة ثقيلة ، وتنعقد فيها سحب كثيفة ، ثم تنشق السحب عن أمطار غزيرة ، تهطل على الارض حانقة ، وتظل الامطار تنهمر كأنها أنهار تتدفق • وعادت كآبة المياه المضطربة تخدّر المدينة •

ظل المتسولون يضربون في الارض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذي يبللهم • انهم يسيرون وقد ماتت

منهم الاحداق ، وراحوا يمـدون أيديهم بحركة غريزية • انهم ينبعون من بين المطر المتساقط كامدين مبعثرين ، ثم مايلبثون أن يعودوا اليه • لكأن العدم الرطب كان يتقيؤهم •

ألف السكان منظر هذه الاطياف الآن •

ـ اذا لم تجئنا الامطار في هذا العام بأي خير من خيراتها المعتادة كما يجب أن نتوقع ذلك ، فانها على الاقل ستدفع الى شوارعنا هذه الانواع من البشر ، الخلقة البالية ، الدكناء كأنها وحوش الغاب •

بهذا الكلام كان يتندر بعض المازحين •

وكان هؤلاء أنفسهم يقولون بصدد هذه المخلوقات البائسة :

ـ ليس في الامر خطورة ••• ماهؤلاء الا منا •• أنظروا اليهم • انهم مرآة تنعكس فيها صورتنا نحن ، انهم أصدق صورة لما نحن عليه • أنظروا اليهم تروا هذه الصورة •

وظل الجو السيء مقيما في المدينة لايبارحها • ان من الصعب على المرء أن يعبر عما يترك هذا الجو السيء في النفس من أثر • لقد أصبحت أيام الصحو الاخيرة ذكرى دارسة • وكان الناس حين يرون أعاصير الماء التي تهـدد بابتلاع الكون يدمدمـون قائلين : « حمانا الله من الكارثة • لقد انفتحت أقنية السماء » • ان الفيضانات تذهب بعـدد من الضحايا في كل عام تقريبا • وبعض المساكن ينهار أحيانا • والناس يضيفون الى ذلك قولهم : « سبحان اسمه » •

ان أبخرة كثيفة تغشى المدينة في بعض الساعات من بعـد

الظهر ، وتبلغ من كثافتها أن المدينة تغيب فيها ، فما يستطيع أحد أن يميز شيئا • ومع ذلك كان الاعصار يزول في بعض اللحظات ، وكان الهواء يسكن شيئا بعد شيء ، ويظل المطر يهطل ، لكنه يهمي عندئذ رذاذاً دقيقاً ، بغشة خفيفة تشبه أن تكون دخانا ••

وتعود المباني الى الظهور ، مبتلة حتى الحجارة • وتسفر الاشجار عن قاماتها السوداء الشعثاء في جو مكبرت بارد الاشعة أدهمها • وتتمزق سحب رطبة على رؤوس المآذن ، وتتشرج في أشجار الدلب القديمة ، ثم تتبعثر اربا كبيرة ترقى الى السماء ، فتشد منها هنالك رياح تهب على حين فجأة •

وولىّ الصحو بعد ذلك •

في ذلك اليوم عدل عمر عن الذهاب الى سكك الحديد ينبش حجارتها• انه يحتمي الآن ببعض الاروقة أو بعض الشرفات، ويثب فوق برك الماء ، راكضا الى البيت ليتجفف لقد هبط الليل• ان القلة القليلة من الناس الذين ما يزالون يصادفون في الشوارع يسيرون بخطى حثيثة •

وفجأة أخذت الامطار تدك الفضاء في عناد أقوى ، وهذه هي المدينة ، المظلمة الملتمعة ، المختنقة بين جدران أسوارها ، التي تتعرج أزقتها الى غير نهاية ، وتتكدس بيوتها المتشابهة متسندا بعضها على بعض ، ويشبه كل حي من أحيائها أن يكون كتلة من وحل ، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد مايكون عداوة ونكرا : جدرانا جهمة غفلا ، شوارع وأبراجا وأسقفا مغسولة •

— ٤ —

حين أجبرت عيني ابنها على أن يخرج معها، كانت المدينة ماتزال غارقة في حلم من ماء وضجر • وقد التقيا أثناء الطريق بمتسولين ينتقلون جماعات جماعات ، ويفورون كالاشباح في الشوارع الغارقة في البخار ، فيبدون بعيدين بعيدين •••

ولكن سرعان ماظهرت كتلة « ميدان البليق » • هذه أكاليل من سلال القصب معلقة بسقوف خصاص الخشب القابعة في وسط الميدان على صورة مربع ، حزام من قفف تختفي وراءها قفف ، وسحاحير خضر ودكاكين شواء ، كقلب أخضر قاتم تنشق فيه حوانيت الجزارين جروحا بلون البنفسج • ان رائحة قوية من روائح الغياض تملأ الجو • والامطار منهمكة في اذابة الالوان الخضراء والشهباء عن الاشجار ومناضد الجزارين والناس والمباني • والميدان والشوارع المجاورة تَورِشة بحركة الناس والعربات ذاهبة آيبة • والحمالون السغاب يجولون هنا وهناك في خرق رثة • والفلاحون الخشان تفوح منهم رائحة الارض وهم يسيرون • وهؤلاء نسوة يمررن بالمكان متدثرات بحجب بيض • ان الضوضاء مخنوقة ، وأصوات الناس تخرج من صدورهم مبتلة ، والشحاذون ينادون نداءات مصرة بغير أمل : « حسنة يا اخوان ، صدقة ، حسنة »•

ان هؤلاء الشحاذين لا شأن لهم بأولئك الذين وفدوا الى المدينة في المرة الاخيرة . انهم لا يثيرون قلق احد من الناس .

ـ « حسنة لله ، حسنة على ارواح موتاكم ، صدقة يا أهل الخير » .

وأمام خص من خصاص الخشب تجلس فيه على عروشها قدور ثجلاء ، أبطأ عمر خطاه يتمصص الروائح المبتلة التي تخرج من القدور . ولكن صوت عيني ما لبث أن استحثه من بعيد كأنه مهماز . وسارا في دروب المدينة الواطئة .

ان البيوت في هذه الاحياء القديمة لايصطف بعضها الى جانب بعض ، بل هي تتصادم في فوضى كبيرة وسط الطريق المرصوف . وهذا جدول أسود يتلوى بين الابنية الهرمة المتآكلة. سارت عيني وابنها أولا في شارع صغير سريع الانحدار متعرج، أفضى بهما الى « باب زير » ، ومن هناك دخلا في شارع صغير آخر رمى بهما الى زقاق مسدود. كانت المدينة قد أقفرت مرة أخرى تحت وابل المطر .

وقفت عيني أخيرا أمام بيت عتيق ، مهيب المظهر ، رغم تخربه ، ورفعت دقاقته البرونزية ، فقرعت الباب ثلاث مرات . كان الباب المصفح بالحديد مفتوحا ، ودوت الضربات في الفراغ. احتمت عيني مع ابنها بالمدخل المغطى بمربعات قديمة من الخزف . ما من جواب . لا صوت الا صوت تساقط المطر على بلاط فناء البيت .

قرعت عيني الباب مرة أخرى ، ونادت :

ـ يا آمنـة .

لقد حرصت عيني على أن لا يكون صوتهـا قويا . المطر يتساقط على بلاط الفناء في قرقعة متساوية . لكأن البيت خال من السكان . قوّت عيني ضرباتها وصوت ندائها : طاق ، طاق ، طـاق .

ـ يا آمنـة .

فظهرت في هذه المرة امرأة طويلة يابسة لها رأس كرأس الماعز ، فقالت لهما رأسا في ايجاز وخشونة ، دون كلمة ترحيب :

ـ انه هنا .

فزفرت عيني تقول وقد أشرق وجهها :

ـ هـا ...

دخلت الام وابنها وراء المرأة ، فقادتهما الى غرفة مظلمة كان يجلس فيها شخص منتفخ على فراش ، طاويا ساقيه . ان الغرفة الواسعة غارقة في جو من الحشايا . وفي الظل تلتمع أوان من النحاس التماعا غامضا . اخذت عيني تضرع الى الرجل وتبتهل دون مقدمات ، فكان يصغي اليها من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يطرف له جفن . وكانت امرأته التي من عظام تراقبهما بعين حادة .

لم تصل عيني الى الكلام عن الغرض الذي جاءت من أجله الا بعد ربع ساعة من الزمان ، فلما عرضت على المحسن ماحي بوعنان انها تلتمس لابنها عملا تنهدت تقول : « هذا اليتيم » ،

وهي تمسك بكم عمر الذي ظل واقفا خلفها ، وفي الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمر ، وأوشكت ان تنفجر باكية . فدمدم الرجل يقول :

ـ أرسليه الى معملي .

هذا هو الكلام الوحيد الذي سقط من شفتيه . فخرت عيني راكعة أمامه تشكره .

وفي هذه اللحظة انفجر في الغرفة بكاء طفل صغير . فأسرعت ربة البيت الى الركن الذي كانت تنطلق منه الصيحات . واشتبك صوت الأم بصوت الرضيع . أخذت المرأة تصب على الطفل الصراخ سيلا من السب واللعن في تدفق عارم :

ـ يامنحوس ، يا ملعون ، حمى تأخذك .. ألا تستطيع أن تهدأ لحظة ؟ . الله يحرمني منك ..

وظل الطرح النزق يعول بكل ما أوتيت حنجرته من قوة ، غير مبال شتائم أمه .

كان عويله ما يزال يُسمع حين خرج عمر وأمه من هذا المسكن مسرعين ، وصارا في الشارع . لقد أدركا بتلك السرعة المعهودة في الفقراء ، أن غضب هذه المرأة السليطة انما كان موجها اليهما لا الى الطفل .

* * *

— ٥ —

قال واحد في الظل متذمرا :

ـ ماذا تريد ؟

فأدرك عمر من الصفير الذي صحب هذه الكلمات أن الرجل الذي نطق بها غير ذي أسنان .

هبط عمر الدرجات الاخيرة من السلم الذي وقف عليه ، فصار في الكهف . ان رطوبة كرطوبة مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه. أحس الصبي باختناق . انه لا يرى شيئا . تحسَّر على الشارع : ألا ان الامطـار التي تهطل كالانهار خير من هذا الجو الخانق . تردد . واستبدت به رغبة جامحة في صعود السلم والفرار من هذا المكان .

كرر الصوتُ يقول :

ـ ما الذي جاء بك ، هه ؟ قل ..

أجاب عمر :

ـ أرسلني صاحب المعمل .

وطافت في خيـاله صورة المرأة الطويلة ذات الرأس الذي

يشبه رأس ماعز ، وصورة الشخص المتنفخ • وتخيل أمه عينيوهي تخر راكعة أمام ذلك الرجل ، وتخيل نفسه وهو يستحثها على القيـام والخروج بعنيف القول ، فتنهض ولكنها لا تستطيع الذهاب ، وتظل تردد :

ـ أنت المحسن الينا ، أنت رب نعمتنا • جزاك الله عنا خيرا في الدنيا والآخرة •••

ولما ألفت عينا عمر هذا النور الخافت الذي يضيء الكهف ، رأى الحائكين الذين كانوا ينظرون اليه نظرة عداوة • ان قسمات وجوههم جميعا ذاوية شاحبة •

لم يعرف ماذا يفعل •

ـ صاحب المعمل هو الذي أرسلني لاعمل مكبيا •

فنظر اليه الشخص الذي كلمه في أول الامر نظرة فاحصة ، وقد ظهرت على وجهه أمارات التقزز :

ـ ما عمرك ؟

ـ خمس عشرة سنة •

زاد عمر عمره سنةً من قبيل الحيطة •

ـ طيب ••• تستطيع أن تبقى • واليك الشروط : في آخر الاسبوع تتقاضى من كل حائك ما يقدّر أنك تستحق أن تتقاضاه•

قال الرجل ذلك بلهجة متعبة غير مغربة • فخفض الفتى رأسه•

قال الرجل :

ـ موافق ؟

ثم طاف ببصره على المعمل باحثا ، وقال :

ـ يا زبيش ، انه يستطيع أن يبـدأ .

فخرج من الظلام وراء عمر عفريت صغير مشوه ، له شعر كأنه الوبر أشعث ، فشدَّ عمرَ من كتفه قائلا :

ـ تعـال .

فتبعه عمر ، وابتعد الاثنان الى القاع الرطب اللثق من الكهف .

ـ ما اسمك ؟

كانا قد وصلا الى كومة ضخمة من الاكياس والعجلات وقطع الانوال والخيوط والعُدد والاشياء الاخرى التي يصعب على المرء ان يعرف أوجه استعمالها .

ـ عمر ، وأنت ؟

ـ أنا الذي أسألك ، وليس لك أن تلقي أسئلة . اسمي حامي أما زبيش فهو اللقب الذي ألقب به . واعلم انني هنـا رئيس الصبية فعليك أن تفعل كل ما آمرك به ...

فنظر اليه عمر يلاحظه متحيرا ، وأضاف زبيش يقول وهو يتهزر على ساقيه العوجاوين :

ـ هل فهمت يا مغفل ؟

وكان الحائكون يتابعون كلام الصبيين دون أن ينقطعوا عن العمل .

فقبض عمر كفه ، ودمدم يقول متوعدا بصوت خافت :

ـ اياك ... حذار ...

فنظر اليه زبيش يتفرس فيه دهشا ، وتمتم يقول :

ـ أأنت من أهل المشاكل ؟

ثم لم يلبث أن صاح يقول بلهجة المجاملة :

ـ اسمع يا عصا .. هلم نتصالح ، هل تريد ؟ أنت ترنحت لانني رميتك بسهامي ، فاعلم أن الامور ستظل تجري على هذا المنوال ما بقيت هنا .. انك لم تر شيئا بعد . انتظر قليلا ، وليُسلخن جلدك سلخا .. موافق ؟

ومد يده الى عمر ، فتناولها هذا ، وتابع الصبي يقول :

ـ ليس يجديك انك كبير . لسوف ترى هذا بأم عينك . أنت جديد ، وعلى الجديد أن يطيع القدامى . عليك أن تطيع ، هذه نصيحتي اليك . الطاعة خير لك .

دمدم عمر يقول من بين أسنانه انه موافق ، فدهش زبيش من هذا الاذعان الذي لم يتوقعه .

ـ حسن ... أنت فتى طيب ... هيا كبب شلل الغزل التي تراها هناك .

قال زبيش ذلك وهو يشير بيده الى شلل من الصوف المغزول نضدت تحت درج . كان عمر يعرف ماهو العمل في معمل

نسيج • فغرز مكبا على مداره الحديدي ، ووضع عليه شلة من صوف ثخين مبروم برما متفاوتا ، وأخذ يعمل شادا رأس الخيط •

انه يعمل منذ برهة، تحيق به جلبة مغزل• واصطفاق الامشاط يوشق بعضه في بعض بين قرقعات المكاكيك • ان عمر يصغي الى هذه الضوضاء ••• ويصغي الى الضجة الناعمة المخشخشة التي يحدثها مكبه • أمس كان حرا • أمس كان يجري في الشوارع طليقا بغير لجام • وهذه حياته الآن تقطع قطعا بما يشبه الساطور • شعر عمر بحزن مفاجىء يأخذ بمجامع نفسه •

* * *

الظهر • لم يمض أحد • وعمر لايجرؤ أن يمضي أيضا • فعل مافعله غيره • لم يترك الكهف • صبر • رآهم يخرجون طعاما • ومر قربه رجلا عملاق تزين وجهه لحية كالفحم سوادا ، فسأله بصوت عريض :

ــ ألم تجيء بطعام ؟

فلما أجابه الصبي بحركة من رأسه أنه لم يجيء بطعام ، قطب الحائك حاجبيه ، ومضى الى نوله ثم عاد يحمل قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون الجاف وضعهما بين يديه •

شخص عمر اليه بعينين دهشتين • فتأمله الرجل العملاق صامتا • انه ليس ممن يكثرون الكلام • ومضى يلحق بجماعة

العمال الذين كانوا يتناولون طعامهم عند قاعدة الدرج ، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة .

وبينما كان عمر يمضغ خبزه ، وصل زبيش ، وعاد يصدر أوامره :

ـ حاول أن لاتنسى في المساء ، قبل اغلاق الدكان ، أن عليك أن ترتب الاشيـاء المبعثرة ، وأن تكنس الارض ، وأن تحمـل الاغطية الى المستودع بعد ذلك .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ؟ سأفعل مثلك يا أبله .. ولكنني هنا أقدم منك ، فعليك أن تتبع نصائحي . ستجري الامور على خير حال اذا أنت قررت أن تطيعني ..

قال زبيش ذلك ، وغمز الصبي الجديد . كان يبدو مسرورا بشيء لم يستطع عمر أن يعرف ما هو . كانت حدقتاه المحتقنتان تلتمعان رغم الغشاوة التي تحجبهما . وظل يثرثر بصوت شرس ، ثم غنى ألحانا لا رأس لها ولا ذنب .

وفجأة أخذ يحكي قصة عن أبيه . قال ان أباه الذي مات منذ ثلاث سنين كان حدادا . وفي ذات يـوم بلل احدى بناته بزيت الكاز ، وهي في السنة الاولى من عمرها ، ثم أحرقها حية . كان لايعمل ، وكان يعود الى البيت في كل يوم وهو في سكر شديد . وكانت الام لاتـدري ماذا تصنع من أجـل أن تجيئهم بطعام . كانت تمضي تتسول متلفعة بحجابها ..

وما كاد الصبي يفرغ من حكاية هذه القصة حتى شرع في حكاية قصص أخرى • فلم يبق في ذهن عمر من هذا السيل من الكلام الذي سمعه الا أن هناك عصابات من اللصوص لايستطيع أحد أن يقبض عليهم ، حتى ولا ذلك الجيش من رجال الدرك الذي يطاردهم •• ففي اللحظة التي يظن أنهم على وشك أن يقبض عليهم ، يتحدث الناس عنهم في الطرف الآخر من البلاد • وحين يعتقد أخيرا أن القبض عليهم أصبح أمرا أكيدا ، يختفون بما يشبه السحر ، فما يعثر لهم على اثر • وخفض زبيش صوته ليقول ان الفلاحين يساعدونهم لان هذه العصابات من اللصوص تعاقب أغنياء المستوطنين الفرنسيين وتفرض عليهم الاتاوات •

كان الصبي يعرف قصصا كثيرة مرعبة ، عن السحرة ، والقتلى والارواح ، والغيلان ••• ان اعتلال صحته ، وذبول جسمه قبل الاوان لم يخفضا نشاطه ، بل انهما ليوقدان في عروقه نارا •

وكان بو زيد ، وهو صبي آخر ، قد قرفص قربهما ، وأخذ يصغي الى الحديث محملقا •

وفي هذه اللحظة صاح شول يأمر :

ـ الى العمل يا أولاد !

ان شول هو ذلك الرجل الذي ليس له أسنان • انه بجسمه المعروق ووجهه الاغبر وشعره القصير ، أشبه بمقشة عتيقة متنتفة• أخذ يدنو بخطى متبخترة ، وهو يضحك ضحكة تكشف عن لثتيه البنفسجيتين ، وعيناه جافتان جارفتان كعيني باز ••• حتى اذا

أوشك أن يحاذي زبيش ، انبطح العفريت الصغير على الارض • ان هذه الحركة تجنب الصبي لطمات اليد العريضة الصلبة ، يد هذا الحائك • كان شول يتصرف تصرف من هو صاحب المعمل • أتراه كان يستمد هذه السلطة من رب العمل ؟ لاشك في أن الامر كذلك ، فقد كان العمال يخضعون لاوامره • كرهه عمر •

ـ هيا ••• بسرعة ••• الى العمل !

واشتد الظلام فجأة في الكهف ، حتى ليعجز المرء أن يجد طريقه فيـه الا تلمسا • وانتشر برد قارس كالثلج • لاشك أن السماء قد غشيتها السحب • جلس عمر أمام مـكبه • ونهض زبيش بسرعة منذ تجاوزه شول ، وأخذ يصيح صيحات طويلة : « هوه ، هوه » واشتعل المصباحان اللذان كانا معلقين في القبة يغطيهما الغبار •

نظر عمر الى مكبه وهو يدور • هؤلاء الناس ، هذا الرجل الذي اسمه شول •• نظر عمر اليهم متفرسا •• انهم أشبه ببوم اختار مسكنه في ظلمات هذا الكهف •

* * *

— ٦ —

لم يأت المعلم ماحي بو عنان الا في نحو الساعة الرابعة. هوذا يصل الآن متلففا بقباء أحمر من وبر الجمل ، وقد انتفخ القباء بالماء وتصلب . ان كل حديث قد انقطع من قبل أن يصل الى آخر الدرج ، وتضاعف نشاط الانوال .

فلما صار في وسط المعمل رد عمارة البرنس بحركة من كتفه الى وراء ، وأخذ يهز جسمه ليتساقط عنه الماء . ان قطرات كثيرة تتساقط على الارض فيسمع وقع تساقطها . وكانت الريح تهز زجاج النوافذ .

وتهالك المعلم بعد ذلك على كومة من الاغطية قرب كانون من فخار فيه فحم مشتعل ، ثم مال بجذعه على النار وأخذ يدفىء يديه صابرا . ان بقعا حمرا ترتسم على قبائه . وان انعكاسات مثلها توقد نارا في عينيه .

قال شول :

— جوء ابن الكلب !

— هم ...

هكذا زفر ماحي بوعنان وهو يقوس حاجبيه ويرفع أجفانه المتورمة .

وغمس في الرماد الرخو ملعقة معدنية طويلة مثلمة الاطراف ، فحرك بها النار ، فاذا بالجمرات التي لم يكمل اشتعالها تطقطق وتقذف بشراراتها ، فيسحق منها بوعنان ما وصلت اليه يداه ، ويراقب الاخرى وهي تنطفىء من تلقاء ذاتها .

انطلق شول يضحك ضحكة انتهت بغرغرة . وكانت عيناه المدورتان اللتان ليس لهما أهداب ترقبان رب العمل . قال :

ـ تكاد تحرق الورشة .

فلم ينظر اليه ماحي بوعنان ، ومال على الكانون بوجهه الثقيل وشاربيه الاشعثين المتدليين .

هتف حمدوش يقول ، وهو شاب أحمر الوجه :

ـ يا معلم ، اذا استمر هـذا الجو ، فأنت الـذي ستجمع الذهب ، فما من جو يروج أعمال الحائكين كهذا الجو ..

وكان ماحي بوعنان يصغي الى هذا الكلام ،فألقى عليه العامل المتوهج الرأس نظرة شزراء .

ـ سيكون في وسعك أن تدفع لنا المتأخر من حسابنا بعـد الآن ، أليس كذلك ؟... اننا ننتظر منذ أسابيع . وما هو بالمال الكثير ، ولكنك لاتفلته بسهولة ، اعترف بذلك . حذار ثم حذار، انه لخير للمرء أن لايملك ذهبا كثيرا . فكلما ازداد ما يكنزه منه ازداد حسد الناس له .

قال حمدوش ذلك وضحك ضحكة حادة . ان هـذا الفتى

الجميل ، وهو أصغر العمال سنا ، يتكلم بصوت عال متقطع ، يحنق من يخاطبهم. ظل ماحي بوعنان صامتا ، متسندا على الاغطية بعيدا مائة فرسخ عما كان يقوله الآخر .

ورجع هذا عن رأيه فاستدرك يقول :

ـ أوه .. ماقلت هذا متشكيا ، فالامور باقية على حالها ، وينبغي للمرء أن يقبلها ، خير للانسان أن ...

فرفع رب العمل رأسه ، وألقى عليه نظرة احتقار . وقبل أن يستطيع الشاب الاحمر أن يضيف الى ماقاله شيئا. كانت عينا ماحي بوعنان قد اختبأتا تحت حاجبيه الكثيفين . وظل حمدوش ساكتا.

فاذا بضحكة ساخرة تغضن خدي شول الذاويتين .

ـ اذا حل الخير أصاب منه الجميع . وانما ينبغي للانسان أن يؤدي عمله في أمانة .

ـ خاصة وأننا ، لن نبدل من الامر شيئا مهما نقتتل !

بهذا اجاب حمدوش وكان التهكم يرعش صوته .

فقال شول مؤمنا على كلامه :

ـ ها ... نعم ... نعم ...

فاذا بالشاب يصرخ ملء حلقه .

ـ لا ..

ففرح عمر حين سمع هذا الجواب • ان شول لا يخيف اذن جميع العمال • وحملق شول •

وأردف حمدوش يقول بصوت بارز النبرة :

ـ لقد نشأت وترعرعت في حرفة النسيج هذه • بدأت العمل فيها ولم أتجاوز الخامسة من عمري • كان أبي هـو صاحب المعمل •

فلما بلغت الخامسة عشرة أخذت مكاني الى جانبه على النول الذي كان يحتله من معمله • غير أنه كان قد أكل كثيرا من تراب الصوف ، فما لبث أن مات •

ومنذ ان قضى ولم يعد موجودا ليفني نفسه في عمله ، مات معملنا بأنواله الثلاثة ، وانتهى الامر ••

كانت عيناه اللتان تشبهان عيني قط قد ثبتتا على شول وهما تقدحان شررا • وأضاف يقول :

ـ فماذا أفادنا أننا أدينا عملنا في أمانة ؟ بماذا عاد علينا ذلك ؟ بقبض الربح ؟ واضطررت في آخر الامر أن أصبح عامـلا في معمل غرباء •

خيم الصمت مرة أخرى في ارتباك • أخذ ماحي بوعنان ينظر الى خيوط الصوف وهي تتشابك وتنحل على نول عكاشه الذي كان يعمل قبالته • وحرك يده باشارة تذمر •

قال العم صقالي مدمدما :

ـ الشقاء كثير في هذا العالم ..

فأضاف حمدوش :

ـ كثير جدا ، وان المرء ليخطر بباله مالا أدري ..

فهز شول رأسه وهو يعض شفتيه .

ـ لست في الطريق القـويم ياصاحبي ، لست في الطريق القويم التي وضعك الله فيها .

فانتصب حمدوش وقد لاح في وجهه غضب متوحش . ان ذؤابته الحمراء تلتمع في عتمة الكهف . قال :

ـ هذا ما يقال دائما للذين يجرؤون أن يشتكوا ..

فما كان من قوطي الامين ، وهو حائك عجوز ، الا أن قال وقد نفد صبره :

ـ هوه ... ألا انك لا تتورع ولا تتحرج . اياك أن تضيف الى ما قلت كلمة واحدة ، والا لم تعرف مايمكن أن يقع ..

فأجاب حمدوش يقول :

ـ ماذا اذن ؟ ان الله نفسه تخلى عنا .

قال حمدوش ذلك ، وبصق بين قدميه على بساط للفضلات ، مترقبا ان يكذبه أحد .

ولكن لم يفه أحد في المعمل بكلمة .

فقال في ألم :

ـ على كل حال ..

نظر ماحي بوعنان الى عماله ثم أغمض عينيه كأنما هو يريد أن يحذف العالم حوله . وظل على هذه الحال مدة من الوقت . كان عمر الذي يعمل على مسافة بضع خطوات يتأمل رأسه الضخم مبهوتا . وعاد اليه انزعاجه الشديد الذي شعر به في ذلك الصباح أمام هذا الرجل . ان المعلم يمصمص شاربيه ، فيصدر من ذلك صوت ضعيف . ليس هو الآن الا كتلة من عدم الاكتراث . ثم تقبض وجهه ، وبدا عليه أنه يستيقظ . طاف ببصره على الانوال متحاشيا أن ينظر الى العمال ، ثم نهض ليمضي .

ما ان خرج ماحي بوعنان حتى تقلصت قسمات العمال غما وحزنا . ان النهار يوشك أن ينتهي . أرخى كل منهم العنان لحنقه ، وقام بينهم وبين الانوال صراع رهيب . الانوال الواطئة المرصوص بعضها الى جانب بعض تحت السقف المقبب ، تئن ولا من يرحمها بين الرجال العشرة . ان بعضهم يتخالس النظر . وهذا بعض آخر يعتصم بصمت يفيض حقدا . وما ينفك صراخهم في طلب المزيد من الصوف المكبب يطيش ألباب الصبية . يئس عمر من امدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من هـذا الصوف . كان يعمل مسرعا ، ثم يزيد سرعته وهو يحس أن قلبه يوشك أن ينفجر .

انقضى آخر النهار دون ان يتبدل شيء . هبط الليل وما زال العمال يعملون ...

وحانت ساعة الانصراف ، لم يخطر ببال أحد أمر ترتيب الكهف وكنسه . أدرك عمر انه ليس عليه أن يهتم كثيرا بهذا الامر .

خرج عمر من الكهف . لا هو ولا الصبيان الآخران حملوا القطع المنتهية لتسليمها ، وذلك بسبب المطر . جعل عمر يركض ركضا شديدا حتى لتكاد ساقاه تلامسان عنقه . كانت سيول بيضاء تتلاحق سريعة في أعلى السماء، وتجري في الشوارع، وتتكسر على الارض . ان قطرات المطر تخز وجهه وخزا . وهذه أنوار البيوت الاوروبية أثناء الليل توقظ في الخيال صور حياة هادئة سعيدة . كان عمر يركض طائش اللب أعمى البصر . ان الامطار والرياح التي ينشقها ملء رئتيه تثير في صدره سعالا ممزقا .. ومع ذلك كان يتجمع في قلبه شعور دافىء بالرضى والارتياح ، شعور لا عهد له بمثله من قبل .

* * *

— ٧ —

في ساعة متأخرة من الليل ذهب هو وأمه الى مركز تموين الفحم ، فوجدا جمهورا من الناس قد اصطف بعضهم وراء بعض ينتظرون • لقد وصلا متأخرين ، فان الليل قد جاوز نصفه • احتلا مكانا بين المنتظرين على طول العنابر التي توزع الفحم على السكان الاصليين ، وأخذا ينتظران • كانت عيني قد ألقت على حايكها منشفة تتقي بها شدة البرد ، كما أن عمر قد وضع على رأسه كيسا من الاكياس يعتمر به على طريقة الشيالين في الموانىء• ان عمر قد أخذ يشعر باحساس لم يستطع كيف يعلله ، ولا عرف الى أي سبب يرجعه : لكأن قنديلا يضيئه في داخل ، ويوقد في نفسه شعلة هادئة قوية • وظل الناس ينتظرون وينتظرون ، فالامطار الغزيرة تلهبهم بسياطها في غير انقطاع ، والليل يبدو نهم أنه لن ينتهي ، والسماء تنشر قلوعا متموجة من المياه ما تنفك تهوي في غياهب الظلام •

وفي أثناء ذلك تسلل الى الفضاء شعاع نحيل من ضياء تحير قبل أن يظهر ، ولاح أن الامطار ستهدأ •

كانت قد انقضت ساعات حين بدأ توزيع مؤنة الفحم : خمسة كيلوات لكل فرد من أفراد الاسرة ، بالسعر المحدد • وأخذ

الصبح الشاحب يتمطى . حتى اذا وافت الساعة الحادية عشرة جاء دور الام وابنها في استلام المؤنـــة من الفحم . فحمل عمر الكيس الممتلىء نصفه على كتفيه وأسرع يعود الى البيت . لقد تنفس الصعداء وسري عنه . ترك أمه بعيدة وراءه. فما ان وصلت هذه بعد قليل حتى مدت بساط الليف المهترئة حواشيه ، الـذي ورثته عن الجدة ماما ، ورقدت عليه .

ونامت مستندة بظهرها الى الجدار ، وقد التف منديلها على رأسها ، وقبع فوقه كالمنشفة التي يلف بها الرأس عند الخروج من الحمام . ان فكيها هابطان ، وقد انمطت شفتاها بوزا ضخما . أدرك عمر أن دفئا منعشا قد اجتاح أخيرا جسم أمه الذي صقع من شدة البرد .

* * *

وهبت ريح ، فتطايرت الستارة الثخينة المسدلة على الباب ، ولطخ المطر العتبة ، وغارت عاصفة أقسى من العواصف التي سبقتها ، فلمح عمر الغسق الذي يلفح وجهه بأنفاسه الباردة . ان هذه الغرفة الطويلة ذات البلاط المربع الاحمر ، والجـدران المطلية بكلس أخضر ، وما فيها من جلود الخراف الهـزيلة ، والاسمال البالية ، والخزانة المصنوعة من خشب ألواح السحاحير، هذه الغرفة تبدو له الآن مهجورة لا يسكنها أحد .

راح عمر يتأمل هذه الاشياء وقد جلس على البساط أمـام

الباب • ان صمتها الاخرس يدهشه • وثقلت نظراته عليها ، ولكن كل شيء منها ظل محتفظا بوجهه المألوف • استمر عمر في أحلامه • لا صوت الا صوت تساقط المطر يعكر هذا الصمت •

وأخرجه من تأملاته تنفس أمه السريع • نظر اليها متفرسا : انها عجوز • شعر بألم يحز في قلبه • انه لم يتساءل قبل الآن ما عسى أن يكون عمرها • وها هوذا يجري حسابا سريعا من أجل أن يقدر لها سنا • قال لنفسه : « أربعون سنة ••• بل انها لم تبلغ حتى الاربعين • » انها ما تزال كما كانت ، ما تزال على حالها ، غير أن هناك الآن هذه اللحظة من الغفو ، وذلك النهار الماطر ، وهذا المساء الكالح • ظل ينظر اليها صامتا • وكأن الافكار التي دارت في ذهن الفتى قد لامست أمه ، فاذا عيني تتحرك في رفق ، ثم ما تلبث أن تعود الى سباتها العميق •

لقد سبق ان قالت لالا في ذات يوم : « المرأة الوحيدة يدب اليها الهرم قبل غيرها » • ما أصدق ذلك القول ! ان عيني يمكن أن تكون بنت لالا سنا ، ومع ذلك فلو رآها في هذه اللحظة راء لحلف انها هي الاكبر سنا • ان كل زفرة من زفراتها تنفخ خديها واحدة بعد اخرى ، ثم تخرج من بين شفتيها في شخير • وفجأة نشقت نشقة عميقة ، وأخذت تتنفس من فمها الفاغر •

كان عمر يحس ان هوة تقوم بينه وبين هذه المرأة التي شوّه وجهها النوم • انه مشدوه أمام هذه المرأة الضعيفة المهجورة ، حتى لكأنه غريب عنها • أي شبه بين أمه وبين هذه العجوز

التي ترقد هنا ؟ تُرى أيكون لها هذا الوجه نفسه حين يوافيها أجلها على حين بغتة ؟ وهاجمت رأس الفتى أسئلة أخرى أيضا . ما عساه يصنع حين يراها تلفظ أنفاسها الاخيرة ؟ أتراه يموت قبلها ؟ أم أنها هي التي ستموت قبلـه ؟ .

وحدّث نفسه بقوله : « أفضل أن أموت من اجل أن تعيش أمي » .

ان بقعا كبيرة من رطوبة تدب في السقف وعلى الجدران ، فتلتهم طلاء الكلس . والعتمة ترشح من خلال الحواجز وتتجمع في الغرفة . النهار في خارج الغرفة ما يزال أشهب .

سكان دار سبيطار قد قبع كل منهم في ركنه . فناء البيت خال . ولا صوت يخرج من المطبخ الكبير المشترك .

* * *

ما كان لعيني ان تدهش اكثر مما دهشت لو شدّها زند قوي فانتزعها من البله الذي كانت فيه . انها منذ لحظة تصارع اشباحا، وتتمتم بأصوات هاذية لا معنى لها . ان هذه الظلمة التي تحاصر الغرفـة وتدور في الزوايـا وما تنفك تكشف تشوشهـا أشد التشويش .

فلما رأت في المكان الذي يجلس فيه عمر كتلة غامضة لايكاد يكون لها شكل ، قالت لنفسها ، وقد قوي صوتها :

ـ هذا كابوس حقا ! أظن أنني غفوت . ما هـذا الاختناق ؟ ياروح أجدادي ! هل جثمت السماء على الارض ؟

وسألت الفتى تقول :

ـ ألم تجىء أختاك بعد ؟

كان في سؤالها قلق • قال عمر لنفسه : « انهما لم تجيئا بعد . لسبب بسيط هو أن مصنع السجاد لا يطلق سراحهما الا في الساعة السادسة من المساء » •

ـ لماذا لا تذهب للقائهما يا بني ؟

ـ ألا تعلمين أنهما لا تخرجان من المصنع الا في الساعة السادسة ؟ ستجيئان •

ـ أنت هنا في مأمن ، وليس على المرء أن يزعج نفسه من أجل غيره •

وأضافت تقلد صوت ابنها :

ـ ستجيئان ••

وبصقت على الارض احتقارا :

ـ تفو ••••

نظر الصبي من خلال شق الباب الى السماء المنخفضة التي تتخللها التماعات مزرقّة • ان رؤيتها أصبحت متعذرة منذ الآن ، هذه السماء •

وصاحت عيني تقول في الظلام :

ـ يا محمد في البيت ، والعمـة فاطمة في السوق : هذا ما يجب أن يقال عنك .

ـ لن يأكلهما أحد .. ألا تنوين أن توقدي لنا بعض النار ؟

ـ كان ينبغي أن تكون الآن منهمكا في العمل لا قابعا في البيت ، لو لا أن قلبك ميت ....

خير له أن لا يرد عليها بكلمة . انها تعتقد أن عليها ان تراكم الكوارث فوق رأسها الى غير نهاية . أليس خيرا من هذا ان تدفىء الغرفة قليلا ؟ ما أشد تقتيرها في استعمال هذا الفحم الذي يوزعه التموين ! . انها تضن باشعال القليل من النار حتى في أيام البرد القارس ! انها بعد ان تهيء الطعام تبلل الموقد حفاظا على الجمر .

ـ لست تصلح لشيء ...

قال يدافع عن نفسه وقد نفد صبره :

ـ هبيني حاولت أن أخرج ، فهل ترين كيف أكون في الشارع ؟ بأية ملابس ؟

لقد تبللت ثيابه في الليلة البارحة ، وليس له ثياب غيرها .

قالت :

ـ ليس يهمك أنت الا أن تأكل وأن تنام .

ثم رددت بصوت كأنه صوت من يتكلم في منامه :

ـ وجدتَ الفندق والمطعم ، فتمتع ... وسوف نسأل عنك ذات يوم ، فاذا أنت قد اختفيت . ستطير عاجلا أو آجلا كما طار الآخرون .

« الآخرون ؟ من هم هؤلاء الآخرون ؟ » كذلك تساءل الصبي مروّعا ، وأصغى الى أمه بعد ذلك دون ان يطرف له جفن .

كان يعرف ما يطرأ على مزاجها بين الفينة والفينة من تقلب مخيف . هذا بعينه ما يحدث في كل مرة . منذ ثلاثة أيام قالت له ، ناسيةً أنها هي التي قادته الى ماحي بوعنان : « لو بقيت في المدرسة لامكن ان تحصل في المستقبل على عمل في مكتب ... ولو كنّاسا . أما الآن فما عسى أن تصبح ؟ حائكا ؟ لسوف تعمل في النهار والليل دون ان تجني كسرة الخبز . هل تسمع ؟ لن تجني كسرة الخبز » .

استولى خدر الليل على الدار الواسعة . والامطار التي ضاعفت حماستها أثناء ذلك ما تزال تفضي الى الفناء والى الاروقة بهذيانها المحموم الذي لا ينقطع .

أضافت عيني تقول بعد ان ظلت صامتة خلال لحظة من الوقت :

ـ ... ذلك أنك تظن نفسك رجلا .

وعادت تنعته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة .

لقد استبد بها الغضب • ثم قالت تلومه : لعلك تحسب أن ليس في قلبي الكفاية من الجروح •

ان صفير الريح وقرقعة المطر ، اللذين يختلطان بصيحات عيني، قد أيقظتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل الى وصفه •

كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر •••

قالت مدمدمة :

ــ على هذه الارض اللعينة ولدنا كما يولد العار ، وأكلنا كما تأكل الحثالات ، وتُركنا كما يترك المنبوذون • حتى خبزُنا أسود، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه •

* * *

— ٨ —

عمر ينظر الى فرجة الباب الشاحبة ، وينظر الى الليل المخيم وراءها ، وعيني راقدة تحلم • ان الصبي يستعرض اعماله ويحس أنه مذنب رغم أنفه • لقد أثرت في نفسه شكايات أمـه •

انقضت بضع دقائق ، ثم قالت عيني تسأل ابنها :

ـ هل رأيت اعلان البلدية ؟ هل أعلن عن توزيع الدقيق ؟

ـ لا ، لم يعلن الا عن الزيت والصابون ، وقد اخذناهما • فاذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية ، كان توزيع الدقيق لا يجيء أوانه الا بعد ثمانية أيام او تسعة •

ـ ليتهم يستعجلون !

قالت ذلك مدمدمة ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم أضافت بلهجة ذاهلة :

ـ الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الايام •

ـ لا غرابة في هذا والجو على ما ترين •

كان عمر متربعا على البساط ، يمسك بيديه قدميه العاريتين ويصغي الى ضجة الامطار ويحدق الى الظلام • ان حواسه كلها

متجهة الى الليل الذي تجتاحه الزوابع . الريح تهب عاتية ، من الشمال تارة ومن الغرب تارة ، تحاول ان تهشم المدينة ، ولكنها تصطدم بجميع المنافذ عمياء مجنونة ، فتجدها موصدة مسدودة .

« يجب أن أكافح جميع الصعوبات ، مهما يكلف الامر ، ولو أرقت في سبيل ذلك دمي » .

قال عمر ذلك لنفسه ، فألقى هذا الوضوح على أفكاره ضياء ساطعا .

وسُمع وقعُ خطوات عجلى بعد ضجة احدثها دفع باب الدار دفعا قويا ، فاهتز من ذلك ما كان يرين على دار سبيطار من ركود ثقيل . وتبعت ذلك بلبلة ، وشبت آهات وصيحات .

قال عمر وهو ينتفض :

ـ جاءتا .

ـ اخرس .. أتظن أن ليس لي أذنان أسمع بهما ؟

ان خطوات نشيطة تقرقع في فناء البيت تحت . لقد عادت عيوشة ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات . انهن يشتمن تجهم السماء بالامطار ، غير أن اصواتهن المغردة تفيض بالضحكات .

قالت عيني لابنها آمرة :

ـ أشعل النور ، فقد خنقنا هذا الظلام .

وما هي الا لحظة حتى ظهرت البنتان وقد حسرتا عن الوجه الحجاب • ان المطر الذي رشح الى الرأس من خلال الحايك قد ألصق بالخدود خصلا من الشعر • وتغير كل شيء في الغرفة حين وصولهما •

فما كادتا تدخلان الغرفة حتى انفجرتا في ثرثرة لا أول لهـا ولا آخر ، ولا تقطعها الا صرخات صغيرة • ان كلا منهما تريد أن تسبق الاخرى في الكلام ، حتى اذا استطاعت احداهما ذلك ، لم تلبث الثانية أن تصيح ثائرة :

ــ صوتك مسموع في أقصى المدينة • اسكتي ••• اف ••

فتجيب الاولى ، أو تجيب الثانية :

ــ أتريدين أن تكمي فمي ؟ يا نور عيني !

فلما تذمرت الام ، طفقت البنتان ترتبان الحجرة قليلا على مهل ، غير أن مريم ما تلبث أن تتعب ، فتستلقي على البساط • على أنهما لم تكفا عن الثرثرة أثناء طواف عيوشة في الغرفة ذهابا وايابا • حتى اذا غابت عيوشة ، في لحظة من اللحظات ، خلسة ، لتنزل الى زهور في الطابق الارضي ، لم يخفَ ذلك على عمر • لقد تركت زهور زوجها منذ عدة أيام ، والناس في دار سبيطار يحيطونها بعناية شديدة • والفتيات في ظمأ الى معرفة ما قد كان الزواج بالنسبة اليها ، اكثر من غيرهن • فكان حشدهن المهذار يجتمع في غرفة احدى الجارات تحت ، لان ام زهور ما كان لها

ان تحتمل انعقاد هذه الاجتماعات عندها ، فقد كانت تنفجر باكية متى لمس احد انفها ، على حد التعبير الشائع . انها منذ المشاجرة الاولى التي وقعت بين زهور وبين زوجها لم تشأ ان تتدخل في الامر ، حتى لقد تجهمت لابنتها النائحة ، خشية أن تعود اليها مطرودة الى أمد طويل ، أو ربما مطلقة ... كانت اذا تصورت هذا الاحتمال يغزوها رعب شديد . وهاهي ذي زهور قد رجعت الى دار سبيطار .. مسكينة أمها ... حين قصت زهور على أمها كل ماقاسته تفصيلا ، لم تزد المرأة العجوز على أن قالت :

ـ حين تُضرب احدانا في ركن ، تلجأ الى ركن آخر .

لقد علم عمر بهذه التفاصيل من أحاديث أختيه . أما زهور فكان يلمحها من بعيد ، لحظات قصارا ، وقد ارتدت ثوبها المصنوع من حرير بلون الورد ، وعلقت بأذنيها قرطين من ذهب . لشد ما تغيرت ! ..

* * *

— ٩ —

كان في يده خبز وسردينة من الليلة البارحة • الصبح يصبغ الجو بالبياض ومع ذلك يحاول ضوء النهار عبثا ان يتملص من الاكفهرار الصقع الذي يغشى السماء • وفي بعيد دوى صفير صفارة انذار منذ لحظة ، كأنه صراخ انسان يسلخ جلده •

كان عمر قد بدأ يعض الخبز والسردينة في الهواء البارد ، وكان هذا الهواء يلهب شهوته الى الطعام •

الشوارع تبلغ من ازدحامها بالشحاذين ان الصبي اضطر في غير موضع أن يخطو فوق أجسام من أجل أن يمضي في سبيله • يشبه هذا ما كان يقع في الماضي حين كان المعازون يجتازون المدينة في مطلع الصباح ، فتتجول قطعانهم في الشوارع والازقة• كان المعازون في ذلك الوقت يحلبون ضروع الماعز فيملئون بلبنها الآنية التي يجيء بها اليهم سكان المدينة الناعسون • ولكن الناس يخطون الآن فوق بشر لا فوق معزى •

ان لهؤلاء المتشردين وجوها مصوّحة يابسة : نساء ذهبت أنوثتهن يجلسن على الارصفة او على درجات المخازن ، ورجال بعضهم واقف وبعضهم راقد وبعضهم قد انثنى نصفين يخبىء يديه تحت أسماله الرثة •

كان عمر يلاحظهم أثناء مروره ويأكل . ان الضوء الضعيف يكشف عن عدد كبير من هؤلاء المتشردين ، فكلما سار الفتى التقى منهم بجديد . ان عددهم اكبر كثيرا مما تخيل الناس في أي يوم من الايام .

تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين ، وهو رجل قصير مدبوغ الوجه ، فتردد عنده قليلا ، ثم مد اليه الخبز والسمك ، وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما .

ـ هات .

ـ هل أنت شحـاذ ؟

واقترب بعضهم ، ونظر اليه آخرون من بعد دون أن يتحركوا .

ـ هل أنا شحـاذ ؟ أوه ...

المستطلعون الذين تجمعوا حول عمر يمدون اليه أعناقهم . والنساء الجالسات على الاكياس التفتن ينظرن اليـه بمزيد من التفرس . ما من احد فتح فاه . وما من أحد تحرك .

لا شك أنهم كانوا سيظلون يرمقون عمر بهذه النظرة مـدة طويلة لولا ان الرجل قد ترك عمر فجأة وأخذ يشغل نفسه بأن مال على بنت صغيرة مستندة بظهرها الى الجدار ، ففتت في كفه كسرة من الخبز في رفق ، ثم دس الخبز تحت منديلها ، ووضعه في فمها . ليست الفتاة كبيرة ، ولا هي رائعة الجمال . واخـذ المتجمهرون من الرجال والنساء ينظرون اليها وهي تأكل دون ان يقولوا

شيئا • انها تقضم الخبز بأطراف أسنانها ، وهي تهز رأسها • ان عينيها السوداوين تحترقان محمومتين ، وتلوحان مبتسمتين تحت عمارة منديلها المعقود حول عنقها •

ونهض المتسول ، الذي لا شك أنه أبوها ، متدثرا بقطعة من قماش مشمع خيط مع مربعات من جوخ عسكري • انه يحمل الخبز والسمكة باحدى يديه ، لا يعرف ماذا يصنع بهما • وصفعت الريح أنفه بالياقة السائبة من ذلك القباء الغريب الذي يرتديه • وكانت السحب تجري في السماء الماطرة سريعة متلاحقة • ان البنت الصغيرة لا تريد ان تأكل أو لا تستطيع ذلك •

الانظار كلها تتجه الآن الى الاب •

قال بلهجة شاكية :

ـ ما العمل ؟

فلم ينبس رجل من هؤلاء الشهود ولا نبست امرأة بكلمة واحدة • ومضى عمر راكضا ، يدخل الشارع الذي أمامه • وجرى هنالك بخطوات واسعة بين الواجهات الشهب المخضلة التي تتلاقى في هذا المكان •••

* * *

الانوال تخبط وتقرقع • وعمر منكب على عمله شارد اللب ، يشد الخيط كما تشد الامعاء من بطن خروف مبقور• اطار القصب

يدور ويسرع في دورانه ، وكتلة خفيفة تتجمع عند قدمي الصبي.

ان فم الهواء الفـاغر قرب السقف مع قضبان من حديد ، ينشر في الكهف ضوءا شاحبا . الحائكون يتحركون ذات اليمين وذات الشمال في العتمة المتلبدة ، ووجوههم الصفراء تترجح على وتيرة واحدة لا تتغير .

ـ نعم ، كانوا ينظرون الى الامور نظرة صحيحة ، فما كانوا بالمتكبرين .

ترجعت كلمات با صقالي في الكهف ترجعا حزينا . ان فيها حنينا قويا . ولقد قال منذ لحظة ، بتلك النبرة نفسها : « كانوا ما يزالون يحترمون عمل البشر » .

ان الحائكين يقومون بعملهم في حركات سريعة . وكان العامل العجوز يزود بالسداة ، في أعمق ركن من الكهف ، مواسير القصب التي يمتلىء بها صندوق فاغر الى جانبه . ان دولابه يصر صريرا لا يتعب ، فصوته أشبه بصوت قدر كبير يغلي . ما يزال صقالي يتكلم بعبارات موجزة تتخللها فترات طويلة من الصمت . قال : صحيح ان الناس في الماضي لم يعرفوا القطار ، ولا السيارة ، ولا غير ذلك من عجائب هذا العصر . ولكن العمل كان في ذلك الزمان بركة من البركات . كان المرء يكسب من المال اكثر مما يستطيع انفاقه . وكان أرباب العمل أناسا كراما .. وكان كل شيء رخيص الثمن ..

ان عمر لا ينتبه الا الى هذا الصوت المنصدع . ان اقوى أثر

أحس به في أولى أيامه هنا انما هو الاثر الذي احدثه في نفسه صقالي هذا ، بوجهه المتقلص المحمر وأنفه المكسور الذي تقشره نظارتان اهليلجيتان، وعينيه الدامعتين، المضطربتين تحت العدستين الكثيفتين ، المبتهلتين كعيني كلب لا صاحب له . ان صوته النحيل الذي يخرج من فمه الاجوف المختفي تحت لحية بلون الفضة ، يأخذ بمجامع قلبك ، فما يتركك بعد ذلك ابدا .

لم يفهم الصبي كلمات العجوز . هل يمكن ان يكون في مثل هذه الحاجة الشديدة الى الاحترام ؟ نظر اليه عمر ، ونظر كذلك الى الحائكين .... هل يمكن ان يكون هؤلاء أيضا في حاجة قوية الى الاحترام ؟

وجالت في ذهنه فكرة غريبة . قال لنفسه : « لعلنا ندخل نحن أيضا في عداد هؤلاء الشحاذين الذين يملئون المدينة ، الا ان هيئاتهم لاقل من هيئاتنا هولا ! نحن هنا ، والناس فوق رؤوسنا تسير » .

وقطع عليه عكاشة تأملاته . قال :

ــ ولّى ذلك الزمان وولى أهله .

قال ذلك ومسح جبينه بكم قميصه ، ثم سحب الوتد الذي يجمد اسطوانة النول ، وأخذ يحاول ان يرى صقالي .

ــ لقد اصبح اصحاب العمل اشد بخلا ، وأشد قسوة بوجه خاص ، منذ صاروا يحاولون ان يجمعوا بأقصر وقت ممكن مالا ينافسون عليه أولئك الذين لا يكسبون منه الا قليلا .

قال ذلك وأدار اسطوانة النول دورتين ، سُر عمر من سماع صوته هذا الذي يخرج من صدره مليئا • ان عكاشة هو ذلك العملاق الكريم الذي نفحه بقطعة من الخبز وقليل من الزيتون في أول يوم من ايام عمله بالمعمل •

أجاب الرجل العجوز :

ــ لقد غضب الله علينا ، ففسد كل شيء ••• ازداد الفقير فقرا ، وغلا ثمن الخبز ••• هذا هو الامر •••

أخذ أحد العمال يحزق على حين فجأة • هذه هي الطريقة التي يعبر بها حمدوش عن مرحه • لكأنه يتغرغر • عرف عمر ذلك •

وكما يربت المرء براحة يده على ظهر بهيمة طيبة ، اخذ عكاشة يضرب سمط السداة امتحانا لحسن انشدادها • وهز رأسه كأنه لا يجد ما يجيب به عن ذلك الكلام ، أو كأنه ليس هناك ما يقال في مثل هذه الحال •

قال مساعده حسين طرف مدمدما :

ــ النهاية ••• اسأل الله أن يكتب لنا الحج الى مكة ! •••

فتمتم عكاشة يقول في ذهول ، كرجع الصدى ، وهو يربط الخيط :

ــ آمين ••

استأنف الحائكان الجالسان الى نول واحد ، عملهما • ففي

سلسلة من الحركات المحكمة ، يستقبل عكاشة المكوك الـذي يقذفه اليه حسين طرف ، فيشد خيط الصوف الى وراء ، ثم يضغط بأصابع قدمه على دواسة ، ويقذف بالمكوك الى الجهة الاخرى • وبعد ذلـك يخبط بالمشط خبطتين قويتين قصيرتين فتتلاصق خيوط اللحمة • ويعود زميله فيقيس من الخيط طولين•

ان عكاشة ، بما في حركاته من مرونة وقوة ، يذكّرك بمدلك من المدلكين الذين يعملون في الحمامات العامة • وصدره العريض الاشعر الذي يشبه قرمةً من قرم الجزارين ، لا يغطيه الا قميص من قماش قطني مخطط ، يتدلى على سرواله كأنه دراعة • ان لحيته الشعثاء المفروقة تطامن من شعورك بالخشونة التي تتجلى فيه وتجعلك من أمرك في ارتباك • ان العناد الذي يظهر في عينيه ويغشيهما بالضباب لا يشتمل على مرارة بل على حزن • انه لواضح أن قلب هذا الرجل يختنق اختناقا •

قال مولاي بو انور مستفهما ، وهو يعرق ويلهث :

ــ فيم تتكلمون ؟

ونظر فلم يظهر في وجهه المهدم ظل لفكرة •

وكان الجواب ان ارتفع صوت أشبه بالصوت الذي يخرج من حك عود ثقاب ، ارتفع هذا الصوت يقول :

ــ غريب •• انه لا يفهم عن أي احترام أتكلم •

أدار مولاي بو أنور حدقتيه • انه يلهث كالمختنق • نظر الى

عيون رفاقه يبحث عن جواب .

ـ نعم لا أفهم ...

فتدخل عكاشة يقول :

ـ العم صقالي يتكلم عن الاحترام الذي كان يحمله أصحاب المعامل للعمل الذي نقوم به .

فزال عن عينيه السوداوين العميقتين ذلك الاتقاد الخفي الذي كان فيهما ، انهما لتكادان تبدوان الآن مرحتين .

ولم ينقطع مولاي عن اللهاث . انه يعاني من مرض الربو ، وتنفسه يسمع من بعيد . تهدل طرفا فمه من الدهشة ، وظل على هذه الحال مدة طويلة . قال :

ـ لا أفهم ....

ثم عاد يعمل وهو يكبح تنفسه ، دون ان تذهب عنه دهشته .

قال صقالي من آخر الكهف المعتم :

ـ غريب ..

وأطلق ضحكة ذات صفير :

ـ انكم ما تزالون شبانا والحق يقال .

وضاعت هذه الكلمات في ضوضاء المعمل ، ولكنها لم تفت بعض الآذان .

صاح احد العمال يسأل :

ـ ما نزال ماذا ؟

ـ ما تزالون شبانا ..

ـ شبانا ؟

ـ أصغر سنا من ان تفهموا هذا الامر .

ـ من أن نفهم ماذا ؟

ـ من ان تفهموا ما كان يشعر به أرباب العمل من احترام لعملنا ..

* * *

لا تسمع الآن الا حركة المكاكيك تذهب وتجيء سريعة ، والا اصطفاق امشاط الانوال بغير انقطاع ، أو الصوت الرتيب الهادىء الذي يحدثه دوران مغزل باصقالي . الحائكون مكبون على عملهم ، حفاة الاقـدام ، وهم يرتدون قمصانا وسراويل مهترئة مبقعة . انهم يعملون على أنوالهم في همة ونشاط وقد اكتست وجوههم تعبيرا قاسيا مستغلقا .

وكان عمر غارقا في تأملاته ، قد نسي كل ما يحيط بـه ، نسي الحجر المظلم العفن والعمل الذي تقوم به يداه كآلتين .

وفجأة احتد دلو ، فقال مُعولا :

ـ افهموا كما يحلو لكم أن تفهموا .. رتبوا الاشياء على

ما يشاء لكم هواكم .. صدعوا رؤوسكم كما تريدون .. فالامر هو هذا ، ولن يكون غير ذلك .

قال ذلك ثم تأثأ ونطق بعبارات مفككة ، بل ولفظ شتائم ضخمة . وكان لا بد له بعد ذلك أن يسكت ، لان المعمل كله قد لاذ بالصمت .

وكان حمزة ، الى ذلك الحين ، يراقب هؤلاء وأولئك في هدوء ، فقال عندئذ :

ـ انكم تتناقشون ، وتحتدون ، وتتناقضون ... فمن أجل ماذا ؟ أمن أجل ان تجدوا آخر الامر انكم متفقون ؟ انكم اذن لتتعبون ألسنتكم سدى .. ماذا يجدينا ان نتساءل عن أرباب العمل في الزمان الماضي هل كانوا يحترمون عملنا أو لا يحترمونه ؟ انني ألقي عليكم هذا السؤال : ماذا ينفعنا ان نعرف هذا الامر .. أليس أجدر بكم ان تنظروا في أحوالكم ، اليوم ؟

وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، ويتمهل في كلامه :

ـ ثقوا أنها أحوال يرثى لها !

فالتفت حمدوش نحو باصقالي بحركة قوية ، وصاح يقول له :

ـ هيه .. هل سمعت ؟ ما الذي ترجوه من احترامهم ؟

وتوقف الشاب الاحمر عن الكلام . ان ابتسامة حادة تشد شفتيه . وحين قرر ان يستأنف الكلام ، زفر وقال :

ـ أنت عجوز !

فأجاب الصوت الجاف مرددا :

ـ عجوز ؟ لم يبق لي الا أن أفطس ؟

وعلى أن صقالي احتج على هذا النحو من الاحتجاج فقد صمت وأطرق .

ـ صقالي ..

ـ ماذا ؟

ـ أنت عجوز جدا ، نعم ...

ـ عجوز جدا ؟

قال حمدوش مؤكدا :

ـ لم يبق لاجلنا الا قليل . نحن على وشك أن نشب الوثبة الكبرى . وما الذي جنيناه من هذه الحياة ؟ يمكن أن نقول : لا شيء .

وردد يقول وهو يشعر بما أثاره من اهتمام :

ـ لا شيء ...

ورنح رأسه يمنة ويسرة . كان يبدو عليه أنه لم ينه كلامه . وكان صقالي ينتبه اليه أشد الانتباه ، وكذلك كان الآخرون .

ـ جائز أننا عرفنا بضع لحظات من سعادة ، ولكن ما اكثر الايام السود الى جانب ذلك ! لقد حرمنا من كل شيء . ولم

نوَقٌ أي نوع من أنواع الكروب والمصائب . قطرات من فرح ، وبحر من مرارة ...

قال هذا الكلام وهو يبرز كل كلمة ، ويتلبث على كل مقطع.

ـ وفي هذا كله ليس هناك الا شيء واحد يزعجنا ، هو أن أرباب العمل لا يولوننا قدرا كافيا من الاحترام ! ...

أظلمت نفس عمر على حين فجأة . ان هذا الشاب الاحمر يثير في نفسه كرها ليس له حدود . ولم ينبس الآخرون بكلمة .

قال العجوز معترضا بصوت خافت :

ـ نصيبنا في المثوى الآخر .

فانطلق حمدوش يضحك ضحكا خافتا ، ويردد بصوت عال واذعان كاذب :

ـ في المثوى الآخر ..

فقال صقالي يحتج في ضعف :

ـ لا خير في هذه الحياة الدنيا ، ولا ...

ولكنه ما ان بدأ عبارته حتى اختنق . اكتسى وجه العامل العجوز صورة طفل مؤنَّب ، واستطال أنفه حتى سقط على فمه الغائر ، ولم يستطع أن يمسك عن ذرف الدموع .

قال قوطي الامين مدمدما بين أسنانه :

ـ زنادقة ملعونون ...

— ١٠ —

الامين ما يزال يحرك شفتيه مدمدما بكلمات وكلمات .

انه أطحل اللون عريض الصلبين ، يحمل وجهه المتأني العابس سنيه الخمسين . ان المرء لا يمكن ان يخلط بينه وبين أي رجل من الرجال العاملين في هذا المعمل . عباءته المصنوعة من لبـاد أزرق شاحب ، المزينة بالضفائر ، وسروالاه العريضان المصنوعان من قماش سميك أبيض ، وعنايته الشديدة بنظافة هيئته خاصة ، كل ذلك يتعارض تعارضا قويا مع مظهر سائر العمال .

ردد الامين يقول مرارا كثيرة :

ـ مصيركم الى جهنم ، مصيركم جميعا الى جهنم .

ولكن لم يكترث بكلامه أحد . وحبذ عمر هذه القسوة منه ، رغم ان الرجل لم يكن محببا الى القلب ، ورغم أن عمر كان لا يستطيب كثيرا خلاله القديمة البالية .

وقد أرسل عمر بعد بضع لحظات في عمل من الاعمال ، فلما عاد وجد الامين عند مدخل الكهف مقعيا أمام طاسة من الماء يتوضأ ، فمضى اليه رأسا ، وقال له هامسا في أذنيه وهو يضع يده على كتفـه :

ـ هم يسخرون منك يا الامين ، أما أنا فوالله ما فعلت ذلك قـط ....

فرفع الحائك حاجبه ، وكال الصبي بطرف عينه . ان الريح العاصفة التي كانت تكنس الشارع الصغير قد صبغت وجهه السمين المتحبب بلون أزرق . وهز الامين كتفه التي وضع عليها الصبي يده ، وطرده .

ـ كفاك لهوا ... هيا امض الى عملك ..

فذهب عمر مجروح القلب .

ومضى الامين في وضوئه ، وقد رد عمامته حتى صارت عند النقرة ، فظهرت جمجمته يعلوها تاج من شعر محلوق بالموسى . غسل وجهه ، فساعديه فقدميه ، ثم مر بيديه المبلولتين على رأسه ولحيته . حتى اذا فرغ من وضوئه عاد فنزل الى الكهف ، وارتدى ثيابه ، وعقد الازرار حتى الذقن ، وجعل يصلي ساكنا لا يهتز ، فهو تارة قائم ، وتارة ساجد . وظل يصلي مدة طويلة .

كان عمر يرقبه من الركن الذي هو فيه . لقد سبق ان رأى كثيرا من الناس يصلون ، ولكنه لم ير في حياته أحدا يصلي كما يصلي قوطي الامين . ان في وجهه بلاغة خرساء قلما يرى المرء مثلها في وجه غيره . ان هذا الرجل القاسي يبدو بائسا كل البؤس وهو يتعبد .

فلما شارف على الانتهاء من صلاته ، التفت برأسه الى يمين

ثم الى شمال . فلمح عمر ، فهز رأسه هزا خفيفا لا يدرك . كان وجهه قد اطمأن ، رغم أنه ما يزال مطبوعا بطابع الالم .

وما ان جلس الى نوله حتى أشار الى عمر أن يأتي اليه ، فلما اقترب منه الصبي قال :

ـ اصعد الى السقيفة فائتني بمكوك جيد . انك نشيط كقرد ..

فوثب الصبي على السلم راضيا ، ولكن ما ان وصل الى آخر درجة حتى أمسك أحد بساقه من تحت ، فتشبث الصبي بحافة السقيفة وأخذ يصرخ قائلا أنه يوشك أن يسقط على الارض . كان الشاب الاحمر يشده في اصرار وعناد وهو يضحك .

ـ قل : « مياو ... أنا قطة » ، والا لم أتركك .

ولكن عمر استطاع أن يتملص منه بهزة قوية ، وقال له يهدده في غيظ :

ـ لألطمن بقدمي بوزك ..

انه ما يزال حاقدا عليه منذ مدة . انه لم ينس كيف عامل حمدوش صاحبه باصقالي .

وانصرف عنه حمدوش وأصبح لا ينتبه اليه ، والتفت الى عباس صباغ يقول له :

ـ انك لشر رفيق ان لم تمض فورا فتشتري بضع فطائر صغيرة طيبة ، تولمها لنا .

قذف الصبي للامين بأربعة مكاكيك أو خمسة ، من أجل أن يختار الحائك منها المكوك الذي يرضيه ، ثم نزل • سأله الرجل عندئذ :

ـ من أنت يابني ؟

فتحير الصبي ولم يعرف بماذا يجيب •

ـ ••• أقصد ••• من أبوك ؟

فاحمر وجه الطفل ثم لم يلبث أن استرد سمرته ، وقال متمتما :

ـ لقد مات أبي منذ مدة طويلة ، ولست أذكره •

لماذا هذا الاستجواب ؟ ان الامين هو أول شخص في المعمل يعنيه أن يعرف من هو هذا الصبي •

ـ أنت اذن يتيم ؟ كان الله معك •

قال له الامين ذلك وهو يمسح بيده رأسه •

ـ ماذا كان اسم أبيك ؟

وانقضت برهة من الزمان قبل أن يتهيأ الصبي للجواب •

ـ ماذا كان اسمه ؟

والتقت نظرات عمر بنظرات الحائك • قال :

ـ أحمد دزيري •

ـ آ •••

هتف العجوز بذلك ، ثم أضاف بعد لحظة قصيرة من تفكير :

ـ الحاج بن علي هو اذن جدك ••• أأنا مخطىء ؟ رحمه الله أنى كان الآن •

وقطب حاجبيه .

ـ نعم كان حائكا من أمهر الحائكين ...

وعاد الى وجهه شيء من بشاشة ، وانبسطت أساريره كأنما رغم ارادته : ان وجهه المحاط بشاش ناصع البياض يغطي أذنيه ، يعبر عن يقظة ذكريات بعيدة في خياله . قال :

ـ أنت اذن ابن أحمد دزيري ؟ لقد كان أبوك رجلا شريفا ، ولكن كانت له افكار ، حمانا الله ... أفكار ...

قال ذلك ورفع ذراعيه علامة الحيرة والارتباك ، وكظم تنهدات همت أن تخرج من صدره على غير ارادة منه .

ـ كان أبوك يقول كلاما لايمكن أن تسمعه اذن رجل مسلم. كان يدعي أن جميع الناس أشباه متساوون .. فكيف يصح هذا الكلام ؟ انهم متساوون حقا أمام بارئهم ... ولكن في الحياة .. (وهز رأسه بحركة انكار) ... هذا مستحيل ...

وغشى الحزن نظرته ، وعاد قاسيا صلبا كما كان .

ثم قال بصوت واضح بعد لحظة من صمت :

ـ كان أبوك يعترض على الشريعة الحنيفة ، دون أن يعلم ذلك . ماذا أقول ؟... لقد مات .

وتابع يقول بتلك اللهجة الوقور نفسها :

ـ أنا أتكلم ، وأنت في أغلب الظن لا تفهم ما أقول . ولكن هل أنا نفسي الا خاطىء مسكين ؟ اللهم ارحم عبادك .. لم يكن

أبوك بالشخص الوحيد الذي يفكر هذا التفكير • أنا نفسي آخذ في التفكير أحيانا ••• فيضل عقلي ، ولا أفهم من الامـور شيئا • يارب ، يارب ، ما هذا الجنون الذي يستبد بعقول الناس في هذه الايام ، فكأنهم لا يؤمنون بوجود الله •

وألقى نظرات يائسة على ما حوله ، ثم أمسك عن الكلام • ظل خلال مدة طويلة نهبا لاضطراب محموم ، وتجهم وجهه وبان فيه الهم ، فلما سقطت نظراته على الصبي مرة أخرى ، بدا عليه أنه يدهش لرؤيته • وتنهد في عناء مرات متوالية ، ثم قال للصبي يسأله :

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تأتي الى هنا ؟
ـ كنت أذهب الى المدرسة •
ـ ها ••• أأنت تعرف القراءة والكتابة ؟
ـ نعم •
ـ وتعرف القراءة والكتابة بالعربية ؟
ـ لا •
ـ كيف لا ؟ أتجهل لغتك يابني ؟

ونظر قوطي الامين الى الصبي متفرسا مدهوشا ، وصمت • لا شيء يمكن أن يخرجه في هذه المرة عن صمته • عاد الصبي الى عمله ، وقد أقلقته تلك الكلمات الاخيرة التي قالها له الرجل العجوز • وأمام مكبه تذكر المدرسة وتذكر دروسه ، فقال لنفسه: « ماكانت حاجتي الى هذا كله ؟ » •

— ١١ —

كان المطر قد عاد يقرع زجاج النوافذ • الريح تدنـدن في الشارع الصغير أغنيتها الرتيبة • الاقدام التي تخوض في الوحل وبرك الماء يصل صوتها الضعيف الى الكهف • والانوال الخمسة التي يواجه اثنان منهاالثلاثة الاخرى ، تترجح ترجحدواب ثقيلة • والمكاب تدور فيخرج من دورانها صوت أجنحة تطير : فر•• فر••

قال صقالي :

ــ انهم اليوم لايحترمون شيئا ولا يحترمون أحدا •••

فلم توقظ كلماته أي صدى • المسدية العملاقة تمد أذرعها الى قبة الكهف ، قرب عمر ، كأنها تتجه بالدعاء الى شخص أو الى شيء لا يظهر • وعدد من المكاب يتداخل في هـذه الزاوية من الكهف ، متراكما بعضه فوق بعض فوضى ، مرميا على صندوق من خشب نخر ، وعلى هذا الصندوق نفسه ، المتقشر الدهان ، وضعت كدستان من الاغطية • وفي آخر الكهف أعمدة سميكة من خشب البلوط فلا ترى في هذه القمة الا رؤية غامضة ، فعلى الاعمدة تقوم السقيفة التي يقبع تحتها صقالي مع دولاب الغزل الذي يديره • ان المرء لا يرى من هذا العجوز الذي يعمل في تكبيب الصوف الا بياض عمامته •

قال عمر لنفسه وهو يحدق الى هذا الشبح : « حزين ومضحك .. أي احترام ينتظر من هؤلاء الناس ؟ » . وارتخى انتباهه فجأة ، وتذكر البنت الصغيرة التي رآها في صباح أمس ، فاضطربت نفسه مرة أخرى ذلك الاضطراب الذي غزاه حين كان في طريقه الى المعمل .

استمر صقالي يتحدث عن أرباب العمل الماضين الذين كانوا يحترمون عمالهم ، ونعى على أرباب العمل في هذه الايام أنهم نسوا كل شيء . ولكن صوته لم يلبث أن أنطفأ كما ينطفىء قنديل نفخت عليه .

ولم يتول أحد قطع الصمت الذي خيم على المعمل منذ تلك اللحظة . أسرع عمر في عمله . انه يدير مكبه بمزيد من العجلة .

ثم أخذ صقالي يرتل آيات من القرآن ، فلم يلبث قوطي الامين أن أخذ يصاحبه في الترتيل شيئا فشيئا . ان صوت صقالي خشن عصبي ، أما صوت الامين فهو سيال عميق يدرك المرء أنه نال من التدرب قسطا لم ينله الآخر ، والصوتان يتساعدان الآن ويتساندان ، حتى لقد صارا في آخر الامر كصوت واحد يغرق الكهف في جو من الصلاة والدعاء .

فر .. فر ... ان عمر ما ينفك يشد خيط الصوف ، دون أن تحس يداه المتورمتان الضاربتان الى لون البنفسج (لكأن المرء حين يراهما يرى باذنجانتين) ملمسها الناعم . ان أفكارا حزينة قلقة تخب في رأسه ، وان قشعريرات تجري في فقرات ظهره .

وأسنانه تصطك على ايقاع نواح المكب وهو يدور وينخر .

اكتست وجوه جميع الحائكين هيئة الجد والتعب . والرأس الكبير ذو اللحية ، رأس عكاشة ، يهتز وقد غشت عينيه ظلال متوحشة قاسية . والهمهمة الراعشة التي تهدهد المعمل كله ، ما تنفك تتخللها شتائم يلفظها قائلوها بصوت خافت .

غاب وعي عمر عن العمل الذي يقوم به . ظل مدة طويلة من الوقت سادرا لا يدري الا الله فيما كان يفكر . حتى اذا ثاب اليه شعوره حملت اليه أنسام الكهف رائحة نتنة قوية اشمأز منها اشمئزاز شديدا .

العمال يدفعون المكاكيك ويخبطون الامشاط وقد تجهمت وجوههم وصمتوا لاينبسون بكلمة . والضربات تدوي معا كأنها عدة مداق تهوي في آن واحد ، وقد بلغت من السرعة والاحكام أنها لا تكاد ترى في هذا الضوء الضعيف الساقط من عين النافذة العالية الصغيرة . ومن حين الى حين ينتصب أحد الحائكين ليجفف وجهه الغارق في العرق .

مرة أخرى شعر عمر بحاجة قوية لا تغالب تحمله على الفرار بفكره من الكهف الى الصباح البارد والشوارع المضطربة بالناس . ها هو ذا وجه صغير غارق في عينين واسعتين يبرز من الظل الكثيف ويخطر أمامه ويبتسم له . يالها من ابتسامة حزينة ! ويكبر الوجه فجأة ويستحيل الى ظل كبير مفرط في الكبر . نظر عمر حوله : ان المعمل غارق في حمى صامتة ، ونور النهار يلطو تحت

القبة • ضربات المكاكيك وخبطات الامشاط تتتابع متناوبة •

في هذه اللحظة زفر مولاي بو أنور يقول بغير صوت :

ــ انتهى ••• لا أستطيع •••

مد عمر أذنه : ان أنات ضعيفة مكظومة تصل الى مسمعه ، ولكن الانات ما تنفك تتسع شيئا بعد شيء وتستحيل الى انتحاب كأنه يخرج من باطن الارض • ان مولاي يتأوه حتى لكأنه يشهق باكيا •

بحث الصبي عن نظرة عكاشة ، ولكن عكاشة كان قد أستند ببطنه الى اسطوانة النول ، وخفض رأسه متشاغلا •

انطلق صقالي يقول فجأة بصوته الحاد :

ــ هيه هيه ، ياشقي ، ياغبي ، أنظر ماذا صنعت وأنت تتأمل الهواء غافلا ••

فنظر عمر فــرأى المصيبة ، فأرخى الخيط الذي كان يشده بيده • انه في أثناء ذهوله قــد ترك كومة الصوف تتشرج خيطانها عند قدميه • وكان عباس صباغ على وشك أن يحتاج الى غزل ، فأخذ يرغي ويزبد • وقرع عمر تقريعا شديدا رغم أنه رتب خيوطه وتخلص من الورطة بسرعة •

* * *

— ١٢ —

كان حمدوش راقـدا على رزم من الصوف ، فنهض نصف نهوض ، ونظر في الفراغ أمامه ، وهتف يقول :

ــ انه لشقاء أن يعيش المرء مع أناس مثلكم ...

وظل ينظر من غير أن يرى ، كمن يسير في نومه .

ان الحائكين يتمطون ويتثاءبون هنا وهناك في الكهف ، مستسلمين لاسترخاء فترة الظهر ، ولكن بعضهم ما يزال محتفظا بهيئة الحنق في أثناء الراحة . لم يتنازل أحد فيكترث أي اكتراث بوقاحة هذا الشاب الاحمر ، لا ولا بدا على أحد أنه سمع كلامه . وظل حمدوش جامدا على وضعه ذاك الذي يشبه أن يكون وضع انسان يحلم ، ثم لم يلبث أن تنهد وانقلب على رزم الصوف التي كان راقدا عليها .

ولم يتحرك بعد ذلك قط . فكان يمكن أن يظن المرء أنـه نام لولا أن فرط سكونه كان يشي هو نفسه بأنه في حالة عصبية.

عاد عدد من الحائكين الى أنوالهم . وأخـذت الاحاديث تتلاحق في المعمل كله . على أن الذين أطالوا فترة الراحة قـد آثروا أن يظلوا خارج المناقشات . وقد استأنف الصبية عملهم

أول من استأنفوه • ان عليهم أن يهيئوا الصوف للانـوال التي ستأخذ في الحركة بعد قليل •

تثاءب عباس صباغ في بطء ، وقال :

ـ هناك شيء يصدع رأسي منذ مدة طويلة • انني غير راض عن نفسي • لست أفهم ما الذي بي • ومع ذلك ما أزال أعيش كما عشت دائما ، لم أتغير • انني غير راض •

ان عباس صباغ يعمل مع عثمان الاحمر الملقب باسم عثمان الموت : لقد بدءا يعملان كلاهما منذ بضع دقائق • قال عباس كلماته تلك ثم توقف عن الكلام وعن العمل جميعا • انه يفكر ساكنا جامدا وقد فرغت عينه من كل معنى •

ـ أصبحت لاأؤمن بشيء ، أصبحت لا أؤمن بما أعمله • هذا هو الامر •

قال ذلك ودهش هو نفسه من هذا الذي أعرب عنه ، وتابع يقول في اندفاع :

ـ يقول كل واحد مثـلا ان على الانسان أن يحب أخاه الانسان • فمن منا يعمل وفقا لهذه القاعدة ؟ من منا يحترم جاره ؟

قال ذلك وألقى على رفاقه نظرة سريعة • ان لعباس صبـاغ فما كبيرا ذا أسنان ضخمة ، وعينين بارزتين عكرتين لا تستطيع أن تحدد لهما لونا ، ووجها متكسر الزوايا • لقد انتصب رافعـا رأسه ، وكأن نظرته تبتلع كل ما تصادفه • ان الصبية يخشون مزاجه الحزين •

ـ من منكم يستطيع مثلا أن يشرح لي هذا الامر : انني أحب الحياة عامة ، فلماذا أحتقر اذن حيـاتي وأكرهها بكل ما أوتيت من قوى ؟ هـه ...

قال ذلك وتظاهر بالاهتمام فجأة بشقة القماش التي فرغ من نسجها هو ومساعده منذ قليل ، فلم يترك عيبا صغيرا من عيوبها الا فحصه فحصا دقيقا .

واستشاط باقي العمال غيظا من أوامر شول ، وقبلوا أخيرا ان يقوموا الى أنوالهم .

وفيما كان حمدوش يمضي الى مكانه ، حدق الى عباس ، ثم بصق في احتقـار .

واستأنف عباس يقول دون أن يحفل به :

ـ يستحي المرء أن يقول (وكان قد أخذ يفحص الحجرة) ان حياتنا تبلغ من الضيق ان بقة من البق لا يمكن أن يحتملها .. نعم ، انها لحياة سيئة هذه الحياة التي نعيشها ، لا جدال في هذا .

وظهر عليه الانزعاج فصمت ، ثم هز رأسه ، واضاف يقول :

ـ هناك لحظات لا ينصب المرء فيها على العمل بقلبه ، فاليدان تعملان ،ولكن الفكر شارد في مكان آخر ، ويشب القلق عندئذ في النفس ، فما نطيق بعد ذلك صبرا . يقول بعض الناس : « الانسان هو كيت وكيت » . الانسان .. الانسان .. ان أفواههم ممتلئة بهذه الكلمة . ألا قولوا لي أيها الاصدقـاء :

من هو الانسان الذي يعنونه ؟ أريد ان اعرف من هو الانسان الذي يعنونه ! هل يعنون پيتان ؟ هل يعنون روتشيلد ؟ أم هم يعنونني أنا ؟ يجب ان نقول كلاما واضحا ، يجب أن لا نخلط جميع الاشياء في كيس واحـد ، ولا تحاولوا خاصة ان تلقوا في روعي أنني شبيه بذلك الذي يملك نصف مقاطعة .. لا ولا تحاولوا ان تقنعوني بأنني أتعذب لانني خلقت للعذاب . انني انسان كأي انسان آخر ...

وازداد ارتباكه من شعوره بأنه يعبر عن كل ما يحسه . ان عباس لا يجيد الكلام على نحو واضح . كان اذا اقل شيئا وجب ان يفهم الناس منه شيئا آخر ... كذلك كان شأنـه دائما . وتململ الحائكون الذين كانوا يصغون اليه . انهم يلقون عليه منذ الآن نظرة ضجرة لا تبشر بخير .

قال حمزة منكرا :

ـ انسان كأي انسان آخر ؟ كلا .

فنظر عباس الى معارضه ذي الوجه السميك . بدا عليه أنه يضيق ذرعا بهذه الملاحظة التي تحمل اليه تكذيبا يوجسه منـذ مدة طويلة .

وظل يحدق اليه تحديقا غريبا .

قال حمزة :

ـ ما نعرفه عن الحياة هو اننا لسنا بشرا كسائر البشر ...

ان حمزة يتكلم بصوت عال ، ويبرز كلماته مستقلة واضحة . انه من ناحية الجسم يشبه ان يكون كتلة واحدة : ضخم الوجه ، عالي المنكبين ، سميك الاطراف . لقد تجاوز الاربعين من عمره ، وهو مع ذلك يحدق الى الناس والى الاشياء بنظرة شهباء ضاربة الى زرقة ، نظرة خفيفة ، نافذة . وله لحية كثيفة وخطها الشيب فهي تضفي عليه شيئا من مهابة ، على ان هيئته عادية بوجه الاجمال ... كان قد نضا عن رأسه طربوشه المصنوع من احمر اللباد ، ووضعه الى جانبه ، معرضا للهواء جمجمته الصلعاء من الجبين حتى النقرة .

كان عمر ، كغيره ، لا يجهل ان حمزة قد قضى في السجن سنين طويلة ، وان هناك ظلا يغشى هذا الامر . ما من أحد يعرف حقيقة السبب الذي سجن من أجله . ويقول بعضهم ان الحبس قد بلبل أفكاره .

قال أيضا :

ـ نعيش العمر كله بين أنوال ، في كهوف .

وكان عباس يلاحظه سادرا يفكر .

ـ ان نفوسنا كهذا الكهف الذي نعيش فيه . الناس في أعلى أحرار ، ونحن ههنا عبيد . ما زيادة قرش على أجر اليوم بالهدف الذي يمكن أن يحفل به عبد .

فدمدم عباس يقول :

ـ حقا ... ليس الحصول على زيادة في الشقاء بالامر الذي يمكن أن يهم أناسا يريدون ان يتحرروا من سجنهم ، اناسا لاقيمة لهم ...

كان عمر يصغي . نعم ، تلك هي حقيقة الحال . ولكن مابال هؤلاء الناس يظلون ساكنين كالحجارة .

وتابع عباس يقول :

ـ حقا ... ما قيمة المطالبة بكسرة خبز ؟

وأضاف حمزة :

ـ ان أناسا وصلوا الى حد أصبحوا فيه لا قيمة لهم ، وصاروا أصفارا ، لا يمكن ان يفعلوا الا شيئا واحدا ... هو أن يطالبوا بكل شيء .

فأمن عباس صباغ يقول مصرا على فكرته :

ـ لا قيمة للمطالبة بشيء ما ، لا قيمة للمطالبة بمائة قرش في اليوم .. هذا كله لا قيمة له ...

فقال الشاب الاحمر هازئا في مرارة :

ـ لاحظوا أنه ليس يضرنا أن يزيد طعامنا قليلا .

فلم يلتفت اليه أحد .

قال حمزة :

ـ ان أناسا مثلنا هم مقياس كل شيء : هم المقياس الذي يقدر به بلد ، او شعب ، أو عالم .

فما كان من الشاب الاحمر الا أن لفه بنظرة هي من نوع الحنق الشديد الذي يحتقن به قلبه ، لفه بهذه النظرة وهو يعض شفتيه .

وتابع حمزة يقول غير مكترث :

ـ لقد وصلنا الى الدرك الاسفل ، فلن تجدينا الطرق العادية من أجل ان نعود فنصبح بشرا ، لا بد لنـا في سبيل ذلك من أن نقلب العالم رأسا على عقب ، وربما كان علينا أن نروعه ...

لقد أصبح في كلامه بطء ، وشيء من الارتداد الى الوراء والرجعة الى النفس .

وعاد يؤكد قائلا :

ـ ان هناك قدرا يجثم علينا ، فاذا أردنا ان نفلت منـه ، وجب علينا ان نحطم كل شيء .

قال ذلك وبح صوته مرة أخرى .

ـ علينا ان نبدل العالم والانسان .. نعم .. ولكن لابد أولا من هدم كل شيء ..

وخيم الصمت على المعمل . ترك حمزة جملته معلقة ، وهو يحرك يده بحركة احتقار تكنس الفضاء . وغابت نظرة الحائك في بعيد . ثم لم يلبث ان مال هو أيضا على نوله ، واستغرقه العمل .

فرغ صبر الشاب الاحمر ، فاذا هو يعول قائلا :

ـ أنا مريض .

فأجابه شول :

ـ لا يظهر هذا لمن يراك .

ـ لست أعرض متاعبي .

ـ هل لك أن تقول لي ما هي متاعبك ؟

ـ أوه .. لا شيء ... لا شيء الا المتاعب الناشئة عن رؤيتك .... عن رؤيتك في كل يوم من الايـام التي يخلقها الله .

قال له الشاب الاحمر ذلك وهو يرشقه بنظرة مسمومة .

وأضاف :

ـ يمينا ان نفسي لتمرض من مجرد النظر اليك . أتفهم ذلك ؟

فرفع شول كتفيه ، وقال :

ـ هيا اعزف على الناي في الطرقات ، فذلك أنجح لك . اما هنا فالناس جميعا أهل جد .

فسعل الشاب الاحمر ساخرا ، وعاد يقول :

ـ ليس في وسعك ان تفهم .. أنت حسبك أن تأكل وأن تنـام وأن تـ ...

ـ يالطيف يا رب ... هل لك أن تعيد ما قلت ؟ ..

— ١٣ —

ـ هل تعرف يا عمر ؟ انك أشبه بفروج صغير باضه المعلم .

كان ماحي بوعنان قد ترك المعمل منذ قليل . وكان عمر يصعد الدرج مثقل الذراعين بكبب من الصوف صبغت حديثا ، فهو ماض بها الى فسحة قريبة ينشرها فيهـا لتجف . لقد انقشعت السماء قليلا ، فشمس الشتاء تجري كسلى وراء غشاء من غمام رقيق . ان حمدوش يتفوه دائما بكلام بذيء كهذا الكلام . فما ان سمع الحائكون تلك الالفاظ التي خاطب بها عمر حتى استخفهم المرح ، فأخذت قهقهاتهم تتراكض في المعمل .

وقف عمر فقال للاحمر ، وهو يرشقه بنظرة سوداء :

ـ فروج أمك .

فدهش حمدوش من الاهانة ، وأمطره بوابل من الشتائم .

ـ لسوف أسحقه لك ، هذا الرأس القذر .. سترى .. اذهب الآن ، اذهب ...

ولكن عمر رفض أن يمضي . فقال له حمدوش :

ـ ما الذي يسمرك هناك ؟

فحرك الصبي يده بحركة تحد ، غير أن الفاظا بذيئة تقيأها

الشاب الاحمر لم تلبث ان صبغت وجهه بحمرة قاتمة .

فحدق اليه حمدوش بعينين تشبهان عيني ضبع ، واستغرب مقهقها ، فأصغى الصبي الى ضحكه مشمئزا ، ثم خرج يسير في الشارع الضيق .

فلما عاد ، غافله حمدوش فأمسك به من أذنيه ، وجعل يطرق رأسه بقضبان المسدية . حتى اذا أفلت الصبي من بين يديه ، أخذ يرشه بـ... من السباب . فاصفر وجه حمدوش ، ورفع قبضتي يديه ، و... عليه . دافع الصبي عن نفسه ما وسعه ان يدافع ، فكان يضرب بيديه في جميع الجهات على عماية ، يعينه حنق بارد . فاستشاط حمدوش غيظا من هذه المقاومة ، فما كان منه الا أن لطم الصبي على نقرته لطمة بلغت من القوة ان الصبي جأر حين هوت عليه كما تجأر بهيمة من البهائم .

صاح الحائكون يقولون :

ـ ما بك يا حمدوش ؟ انك توشك أن تقتله ... هل تريد ان تقضي باقي عمرك في السجن ؟

ان عمر لم يذق طعاما في ذلك اليوم . اضطربت عيناه . أحس أنه ينهار . ركبتاه تنثنيان وترتعشان . لم يفهم ماذا حدث له . ثم ها هو ذا يهجم على خصمه ، فما هي الا لحظة حتى أخذ الاحمر يموء بصوت أبح :

ـ أرخ يدك ... أرخ يدك ..

لقد تشبث الصبي به وضغط على جوزة عنقه بيد كأنها كلابة. حشرج الاحمر ، وصفق الهواء بيديه ، وهو يتدحرج تحت أحد الانوال . ظل عمر واقفا ينتظر في وسط المعمل . ثانية ، ثانيتان ، ثلاث ثوان . نهض حمدوش مشوه الوجه من فرط الحنق .

صاح الصبي بكل ما أوتي من قوة :

ـ قذر ، غدار ، خائن .

فمال حمدوش عليه ، وقرب وجهه من وجهه . ان حدقتيه تتقدان اتقادا وحشيا . صمد الصبي . وزفر يقول له عند أنفه :

ـ ابن كلبة ..

فاذا بصفعة حارقة ، معمية ، تسقط على وجهه ، فتطرحه أرضا . ولكنه سرعان ما نهض من جديد ، فوثب على حمدوش ، وطوّق بيديه رجليه ، ثم غرس أسنانه في ربلتي ساقيه . أعول حمدوش من الالم . وتوقع عمر ان يقتله الاحمر .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وما وقع ملأ الصبيّ دهشة. ذلك ان عكاشة قد أبعد الاحمر بحركة من ساعده ، ودفعه الى وراء فتقهقر الاحمر حتى اصطدم بالسلم ، فسقط على درجته الاولى . وانفجر المعمل كله يضحك مقهقها . واستشاط حمدوش غيظا ، فاحمر وجهه احمرار شديدا ، ووثب نحو عمر . ولكن عكاشة التقطه من ذراعه . فأمسك الاحمر بقبضة عكاشة يحاول ان يخلص ذراعه منها ، ولكنه عجز عن فك عقدتها . فقال معولا :

ـ دعني ..

تركه عكاشة فانتصب يقف امامه دون ان يتحرك ، وهو يرتعش شاحب الوجه ، ثم دار على عقبيه ، ونفض الغبار عنه بحركات آلية ، ورتب سترته ، ومضى يجلس الى نوله .

* * *

في آخر النهار صحب عكاشة الصبيّ ، وسارا جنبا الى جنب . كان الفتى يشعر بشيء من الخوف .

قال له عكاشة :

ـ ما حدث حدث ، فلا تتكلمن عنه بعد الآن . ولكن عليك في المستقبل ان تسلك سلوكا حسنا . وعليك خاصة ان تتحاشى المشاجرات .

وهمّ عمر ان يحتج قائلا ان الاحمر هو الذي اعتدى عليه . ولكن عكاشة تابع يقول :

ـ ... والا أدبتك بنفسي . حذار ..

فتأثر الصبي بما كان في نظرة عكاشة من حرارة المودة ، فعدل عن التشكي .

وأردف صاحبه يقول :

ـ دعك من الاحتكاك كثيرا بعمال الكهف والا ندمت .

فلم ينطق الصبي بكلمة • حتى اذا قطعا شوطا كبيرا ، وقف عكاشة عن السير ، وقال له وهو يضحك انه قد رافقه مسافة بعيدة ، ولا خطر الآن ان يعترض الاحمر سبيله •

ثم أضاف فجأة :

ــ لقد كنت في المدرسة ، فلا بد أنك تفهم امورا كثيرة •

قال ذلك وهو يرقب عمر على نحو خاص •

ــ نعم ••• خسارة ان تعمل في معمل نسيج • مهنتنا هذه لاقيمة لها ••• انظر الى حالي : هذا كل ما يمكن ان تبلغه أنت في ذات يوم ، فاذا صرت مثلي بقيت على هذه الحال الى آخر حياتك • فكر قليلا تفهم عني ما أقول •

قال عكاشة ذلك وابتسم ، ولكن وجهه كان في هذه المرة مظلما •

ــ أنظر الى صقالي مثلا • انه لا يكاد يصلح حتى للقيام بالاعمال التي يقوم بها الصبية ••• هه ؟ ومع ذلك فقد انفق حياته كلها امام النول • أما أنا فآمل ان أفطس قبل أن أصل الى الحال التي وصل اليها • عليك ان تتعلم شيئا آخر يا أخي •• ثم ان كل شيء سيتم صنعه بالآلات عما قريب • بعد عشر سنين لن يكون هناك حائكون • لسوف ترى في المستقبل ان ما أقوله لك الآن هو الحق عينه •

وافترقا •

كان الظلام قد خيم • وهذه ريح باردة تهب من الشمال • غير أن عمر لا يصغي الا الى الفرح الذي يغني فيه كعصفور مختبىء • ان تحذيرات عكاشة قد مست فكره مسا خفيفا فلم تخلف فيها أثرا •

وفي الغداة ، اقترب عكاشة منه ، ووضع يده على كتفه ، قائلا له :

ـ هل الحال اليوم ، أحسن ؟ هل هدأت ؟

فدمدم عمر بكلام مرتبك ، وهو يضطرب على سرور •

ضحك عكاشة ، وقال :

ـ طيب طيب ، هيا •••

* * *

— ١٤ —

عمر يعمل • الكهف يضج بهياج سريع يسري بغير كلال في هذا الركام العجيب من الانوال والدواليب والمكاب • عمر يراقب الظـلال التي تمغمغ وجوه الحائكين • وتمضي الساعات تلو الساعات متشابهة ، كالحة ، تنضح ضجرا لا ينقشع • المكاكيك تقرقع ، والامشاط تلتطم •

لقد ادرك الصبي بعد بضعة أسابيع من الاستنقاع في هذه الحفرة ، ما في حالته الجديدة هذه من جد •

حتى زعيق أمه أصبح لا يشب الا من حين الى حين • صحيح أنها ما تزال تؤنبه ، او تتظاهر بأنها تؤنبه ، غير ان فرحا قويـا قد أخذ يملأ جوانب نفسها •

كان عمر يعود الى البيت في كل يوم من أيـام السبت حاملا في جيبه أجر الاسبوع ، وهو عشرون فرنكا ، فما يكاد يضعـه في كف أمه حتى تأخذ تدعو له بصوت خافت :

ـ الله يسعدك ، شكرا يا بني ••

هذا عمر يحل الخيوط المتفتلة وهو يفكر • فاذا بأغنية نحيلة عذبة تصل الى المسامع من آخر الكهف :

ـ أواه يا أمي الحبيبة .

ارتعش عمر كأن الجو قد ازداد بردا على حين فجأة . ان زبيش هو الذي كان يرنم بصوت ضعيف . وامتلأ الكهف شيئا فشيئا بالصوت البطيء النحيل الذي لا يكاد يكون أقوى من صفير صرّار الليل ... وتبعه صوت آخر ، ثم تبعته أصوات أخرى ... ان الغناء يترجح ترجح غمامة في سماء الشتاء . لم يلاحظ زبيش ، الذي كان يحاول ان يسكب في نواحه روحه كلها ، ما أيقظ حوله من انتباه . وكان وجهه يبدو ، في بعيد ، ساكنا جامدا كوجه من يُحتضر . لعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا أخذ يغني . ثم أخذ يلهث . ان أنفاسه تضعف لحظة بعد لحظة . وتنهد اخيرا على حين فجأة :

ـ آه ....

وتوقف عن الغناء ، وأغمض عينيه . خيم الصمت ثقيلا كالرصاص . غير ان الصبي حاول محاولة اخرى ، في عزم مستميت ، فأخذ الصوت الرخيم يسري من جديد في الظلمة الخانقة التي ترين على الكهف . ولكن الاغنية ما لبثت ان خارت مرة ثانية ، فأمسك الصبي عن الغناء ، ودمدم قائلا :

ـ عبث ، لا فائدة ...

صاح شول يخترق الصمت بصوته الفظ :

هيه ... زبيش ..

فأجابه الصبي المغلوب على أمره :

ـ مـاذا ؟

ـ هل نسكر الليلة ؟

ـ آه ... اتمنى لو امتلىء بالخمر امتلاء .. امتلاء ..

لم يقل الآخرون شيئا . انهم أطيـاف خرساء استبد بهـا اضطراب شديد .

صاح شول يقول مصطنعا نبرات السكر :

ـ آي ... هات ... املأ الكأس ...

فأضاف زبيش :

ـ هنا ... في هذا المكان نفسه ... دون ان تتحرك ...

قال ذلك واخذ ينق نقيقا دام مدة طويلة ، وانتهى بتأوه غير مفهوم :

ـ آه ... آه ..

قال حمدوش :

ـ زبيش أيضا مريض النفس .

فقال قوطي الامين ناهرا في قسوة :

ـ لقد أفسدتم نفسه . هذا هو السبب .

فنظر اليه شول يقيسه من الرأس الى القدمين ، ثم كشر عن لثتيه الزرقاوين وقـال :

ـ أي اثم اقترفنا ؟ ألا يجوز للمرء ان يمزح بعد الآن ؟

وقال مصطفى رزاق محتجا بصوته الاغن :

ـ النفس لا يمكن افسادها . كيف يمكن افساد النفس ؟ انها كهذا النور ....

قال ذلك ورفع نظراته نحو المصابيح المشتعلة المعلقة بأسلاكها .

ثم عاد العمل يجري في صمت . ان كآبة قاتمة قد جعلت الحائكين ينكبون على أنوالهم كأنهم صم . نظر عمر الى عيني شول وهو يبتسم في سخر خبيث . فاذا هو يشعر بجميع اثقال ذلك العنف القلق الذي كان يرين في المعمل تنصب عليه . أحس أن غولا من الغيلان التي يراها النائم في الكوابيس ينشب في كتفيه أظفاره الحديدية . وما انقضت بعد ذلك ثانية واحدة الا في بطء رهيب . ان به رغبة قوية خانقة في ان يصرخ معلنا سخطه على هذه الحياة التي يعيشها ، وصعدت هذه الرغبة حتى صارت على حواف شفتيه .

ـ جاء المعلم يا اولاد ..

ان زبيش الذي يترصد دائما ما يحدث في الخارج هو الذي صاح تلك الصيحة القوية . وما هي الا لحظة اذا بالمعلم يظهر في أعلى الدرج فعلا . استمر العمال في عملهم . غير ان بعضهم قد رفعوا رؤوسهم في تردد ، ثم ما لبثوا ان عادوا يعملون في نشاط محموم .

سأل ماحي بوعنان بلسان متعثر :

ــ كيف الهمة يا أولادي ؟ ياللفتية الشجعان .. مرحى .. ان الانسان ليفرح حين يرى كيف تعملون ..

وأضاف يقول دون ان يتوقع أحد ذلك :

ــ حقا لا شيء في هذا العالم ولا أحد يستحق أن يحزن المرء عليه . ما ينبغي للانسان ان يقلق ابدا . كل شيء الى زوال ....

وحرك ذراعه في الهواء في تراخ . وقال عبارات غامضة لها مظهر الكلام الفلسفي أو الاخلاقي ــ لا يدري المرء ما هي ــ وظل ينظر أمامه كمن يحاول ان يتذكر أمرا من الامور . ثم هز يده باشارة مباغتة ، وقال بلهجة قاطعة :

ــ هيا ... العمل خير من كل شيء .

ثم اجتاز درجات السلم في وقار وجلال ، وذهب كما أتى : صلبا ثقيلا تؤكد كل خطوة من خطواته مهابةً ما ينبغي لأحد أن يماري فيها .

قال الاحمر ساخرا :

ــ المعلم شارب قليلا .

فقال شول مزمجرا :

ــ كفى هراءً ...

الجزء الثاني

— ١ —

ولد الربيع في ليلة • انبثق انبثاقا مفاجئا : سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل • المدينة تفتح رئتيها وقد تخلصت من الثقل الذي كان جاثما على صدرها • أوراق الاشجار عادت تنبت على الاغصان السود التي غشيتها رغوة خضراء • والنهار استرد دفئه الجميل • الناس يرفعون انوفهم في الهواء متطلعين الى بشائر الخير في اشراقة الشمس واولى زقزقات العصافير •

وظهر المتسولون في أيام الربيع هذه أعجب وأرهب مما ظهروا قبل ذلك • مم عاشوا حتى الآن ، وكيف ؟ لا يستطيع احد أن يعرف ذلك • انهم يتسكعون في الشوارع ، وقد اكتسبت وجوههم هيئة من يتذكر شيئا نسيه منذ زمان بعيد • يسيرون في حذر ، لا ينظرون الى أحد ، يمسون الناس دون ان يروهم •

وحدث في الكهف شيء من الفتور • اضطرب النشاط ، واضطربت الاصوات • الحائكون ما يزالون يعملون على أنوالهم في همة ، غير ان بعضهم أخذوا ، على حين فجأة ، يغنون بصوت جهير • لقد تسللت الى الجو المحصور الخانق نشوة صعدت الى رؤوس العمال •

ما يكاد يتنفس الصبح حتى يكون عمر قد حمل الى المعمل الصوف المشترى من سوق الغزل • ان سعادة هذه الاسحار الندية المشرقة الباهرة الطراوة تخزه وخزا كأنها الشوك •

فمتى وصل الى المعمل بدأ عمله في تكبيب الغزل ، ثم مضى يشتري للعمال ما يطلبون اليه شراءه • ان نفسه الآن أقل ظلمة وحزنا • انه يصغي من بعيد الى الاحاديث الفاترة العابسة التي تدور بين العمال ، وهو فيما يشبه الحذر • وهو يسعى بعد ذلك الى بيت ماحي بوعنان في «باب زير» ، يأخذ قفة ويتلقى أوامره • انه مكلف بشراء ما يأمره المعلم بشرائه من السوق لبيته • غير انه لم يقم يوما بهذه المهمة على النحو الذي يرضي رغبات السيدة زوجة بوعنان ، فهو ما ينفك يصغي الى انتقاداتها مطرقا في خشوع •

ومن اجل ان يساعد العجوز صقالي الذي اصبحت الشيخوخة تعجزه في بعض الايام عن القيام بأي عمل من الاعمال ، كان يلف سداة « الطرارة » ، الرقيقة كناعم الشعر • وبعد ذلك بقليل أصبح يحمل الصوف الى المصبغة ، ويعود به الى المعمل فور اخراجه من مرجله الاسود •

على أنه رغم نهوضه بهذه السخر التي لا تعد ولا تحصى ، لم يكن ليرضي أحدا •

فلا بد ان يلاحقه احد دائما باهاناته وتوبيخه • وقد الف هو ان يشتم حتى اصبح لا يعبأ بالشتم • غير ان الامر الذي لا يريده

هو اللطمات والمكاكيك التي تقذف الى رأسه . وكان الحائكون يرشقونه ببصاقهم متى اتفق ان جاءت احدى مواسير الغزل التي كبها متشرجة الخيوط .

كذلك كانت الحال .. انهم يفرغون على الصبية بعض ما تراكم في نفوسهم من حنق . انهم لا يكفون عن سبهم .

هذا عمر يحل خيوطا متفتلة وهو يفكر . فاذا حمدوش يلاحظ صمته ، فيقول له ساخرا :

ـ هل غرقت سفنك المحملة بالزعفران ؟

فما يجيبه الصبي ، وانما تزيده كلماته اقتناعا بأن الاحمر غبي غباوة لا برء منهـا .

ان عمر لا يشعر بالصداقـة الا نحو عكاشة الصموت . ان عكاشة يوحي اليه بالثقة . وهو يذهب الى لقائه كل يوم من أيام الاحد في ذلك المطعم الواقع في آخر شارع صغير مزدحم بالناس في المدينة الواطئة ، فهنالك كان يحلو للحائك أن يحتسي الشاي .

لم يحتمل حمدوش هذا الصمت العنيد في عمر ، فصـاح يقول :

ـ أمر هذا الحيوان الكبير امر عجيب .. فهو ما ينفك يجتر أفكارا وراء رأسه ...

وبعد لحظة ضرب الاحمر الصبي الاشوه زبيش ضربة قوية ، لسبب تافه هو ان الصبي تأخر في العودة بالماء الذي ذهب يملأ

به القادوس من العين التي بالحي • لقد ظمىء حمدوش فلما اراد ان يشرب لم يجد هذا القادوس الذي كان الحائكون يطفئون بمائه ظمأهم •

لاذ زبيش بركن وراء الصندوق قرب عمر ، وأخذ يشهق • انه منكمش على نفسه ، ترتعش اعضاؤه كلها ارتعاشا شديدا ، وهو يشد على جفنيه شدا مؤلما • حاول عمر ان يواسيه • فسمعه يدمدم بصوت تقطعه الشهقات •

ـ سوف أقتله • فلينتظر •• لأقذفن وجهه بكتلة الحديد التي وزنها رطل ••

سأله عمر لماذا يدع لغيره أن يضربه • فلم يجبه الجني الصغير بشيء ، واكتفى بان هز كتفيه •

ان عمر يحاذر هذا الاحمر الذي كان ميله الى الشر شيء غريب دائما •

ولم ينقض ربع ساعة الا وكان صوت زبيش يرن في الكهف فرحا مرحا • ثم اذا هو يأخذ يقرع الارض بقدميه راقصا ، وصيحات العمال تستحثه •

الايام تنقضي وعمر ينضج • انه الآن لا يقل عن غيره حذقا ولا حدة في ادراك الامور ، لقد أكسبه عمله في الورشة خبرة كبيرة • أصبحت المعاملة السيئة لا تترك في نفسه مثل الاثر الذي كانت تتركه أول عهده بالعمل في المعمل • لقد تعلم كيف يحمي نفسه •

— ٢ —

عند عين الماء التي تسمى « عين ليون » ، لاحظ عمر حشدا كثيفا من الناس يملأ ميدان « بليس » . كان الصبي عائدا من المعمل عن طريق ممر « سيلاق » ، وشمل من الصوف في مثل حجمه تكسوه من قمة الرأس الى أخمص القدمين بفروة كبيرة تتقاطر منها الوان حادة فاقعة ، احمر وأصفر وأخضر وأزرق ... اقترب من الحشد ، فصاح به ثقيل يقول :

ـ اركض باصبغتك يا صبي .

فأصم عمر أذنيه عن سماع كلامه ، فأغضب الرجلَ أن الصبي لم يكترث به ، فشتمه وقال :

ـ ألا ترى أنك ترش الناس جميعا ؟

وظل عمر صامتا لا يجيب . وساعدته الشلل المبللة في أن يشق لنفسه طريقا بين الحشد . كان الناس يصرخون مستنكرين ، ولكنهم يفسحون له الطريق .

ان في وجوه المستطلعين من هذا الحشد دهشةً لمنظر غير مألوف . وتطلع عمر فلم يلمح الا فئة بلهاء من اولئك الحفاة الذين يسكنون المدينة منذ مدة قصيرة . لقد نظمت السلطات حمـلة

لجمع هؤلاء المتسولين • وكـان الناس يقول بعضهـم لبعض متهامسين ان سلسلة من التدابير قد اتخذت للوصول الى هـذه النتيجة • ان رجال الشرطة تخفر الآن هذه الاشباح التي تئن •

ــ كانت المدينة هادئة ، وكانت مؤدبة الى أبعد حدود التأديب فاذا بهؤلاء الافراد يعكرون صفوها •

هذا ما قاله تاجر متدثر برداء من جوخ ، مستنكرا في وقار ورصانة •

فدمدم مازح يعقب على كلامه بقوله :

ــ أحالوها الى خـان •

فمغمغ التاجر :

ــ بل احالوها الى ماهو أسوأ من الخان •

ثم أضاف يستشهد جيرانه الذين كانوا يقفون على مقربة منه•

ــ ما تراكمهم في مكان لاعمل لهم فيه ؟ ألم يخلقوا على هذه الارض ــ وهم أناس لا ينفعون أنفسهم ولا ينفعون غيرهم ــ الا ليزعجوا اولئك الذين يريدون ان يعيشوا حياة كريمة ؟

وفي أثناء ذلك ظهر احد اعضاء اللجنة الخاصة التي شكلتها حكومة فيشي ، فاذا البله يتدافعون حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضا • واراد الرجل في أول الامر ان يعرف من أين كان يخرج هؤلاء الشحاذون • ولكن الامور لم تلبث ان ظهرت أعقد مما كان يمكن تصوره • لم يتصد احد من الناس لايضاح هذا اللغز •

وسئل المتسولون ان يبرز كل منهم أوراقه ، فاتضح انه ليس بينهم احد يحمل اوراقا ، لا ولا فهم أحد منهم ما معنى ذلك . وتقرر عندئذ استجوابهم ، فأجابوا جميعا بأنهم غير مستعدين لان يروا مرة اخرى الجحيم الذي غادروه .

ـ سنموت هنا .

لماذا يعلنون هذا القرار المشؤوم ؟ لم يخطر ببال عضو اللجنة أن يسأل عن هذا الامر ، وقالوا يوضحون : انهم على كل حال يجهلون من أين أتوا . ولم يمكن استدارجهم الى مزيد من الكلام .

فزاد ذلك في اضطرام حنق ممثل السلطة ، على اضطرامه من قبل . ان هذا الكهل ، المحلوق الذقن منذ قليل ، المتزين عنقه برباط جميل ، شديد الاحتفال بوقاره . كان واضحا انه لم يخلق للاهتمام بمثل هذه الامور . انه لا يفهمها . ولم يعرف بم يبدأ ، حين رأى الناس ينتبهون اليه ذلك الانتباه الشديد .

وما لبث ان اعلن في صلابة وحزم انه سيأمر بارجاعهم ... نعم ، سوف يطهر المدينة منهم ... لا بد من استئصال هذه الحشرات ... ان المرء يحس لدى كل خطوة يخطوها في المدينة انه يتعرض لاشد الاخطار . هل ينبغي لاحدنا ان يُذبح امام باب منزله ، أن يشهد نهب بيته ، أن يرى امرأته ....

ـ احم ...

كذلك صوّت أحدهم ، فسمع جميع الناس هذه السعلة

الجريئة ، وما كان اشد دهشتهم حين سمعوا ذلك الرجل الذي قال « احم » ، يضيف قوله :

ـ هؤلاء ليسوا حشرات . ان الحشرات التي انقضت على بلادنا هي التي صيرت اخوتنا الى هذه الحال .

فلما سمع عضو اللجنة المكلف بالشؤون العامة هذا الكلام اهتاج اهتياجا شديدا ، واخذ يضطرب مرتعشا . قال يسأل متخطيا بنظره مَنْ حوله :

ـ من تفوه بهذه الكلمات ؟

فقامت في الحشد حركات مضطربة ، وانطلقت اصوات . ثم لم يلبث الصمت أن خيم . لم يعرف أحد من ذا الذي اقحم نفسه في الامر هذا الاقحام الخطر .

ولم يخامر احدا شك في أنه قال هذا الكلام ثم انسل واختفى .

ونهد رجال الشرطة يفرقون الحشد . غير ان الناس لم يلبثوا ان تجمهروا في بعيد جماعات جماعات ، وعادت الالسن تتحرك وقد انحلت عقدتها .

وأقبل على المثرثرين شيخ طويل يسير بخطى بطيئة .

ـ ما الذي تعرفونه عما وقع لهم ؟

قال الشيخ ذلك ، وهو يصوب لحيته التي بلون الزعفران الى جهة الشحاذين الذين لم يتحركوا من مكانهم .

ـ ماذا تعرفون عن الاسباب التي انتزعتهم من الركن الذي كانوا يعيشون فيه من الارض ؟ أيها المسلمون ، لا تتكلموا في طيش اذا كنتم ...

وهنا انبرى مسخ قصير تتدلى عليه مريلة حذّاء ، فقال يقاطع الشيخ ويمنعه من اتمام جملته :

ـ يالهذا العصر الذي نعيش فيه !

وقال رجل حكيم :

ـ صدقوني .. ان تعاستنا ليست بنت اليوم ، وانما هي ترجع الى عهد بعيد . فيم تقلق اذن ؟

ـ ولكن لهذه الازمان أثرا فيها .

ـ هبوا ذلك ... ان هذه الازمان تكشف عن الجرح ... ولكن الجرح ينزف من عشرات وعشرات السنين . كل ما هنالك أننا اليوم نرى الجرح رؤية أوضح .

صاح الحذّاء القصير يقول مرة أخرى في دهشة :

ـ لا أستطيع أن أتصور ان شعبنا تحمّل آلاما كهذه الآلام.

فقال الحكيم مؤكدا :

ـ انه يتحملهـا .

مضى عمر . ان هذه الامور ليست بنت اليوم . هيهات أن تكون بنت اليوم .

— ٣ —

الى أين اقتيد هؤلاء المتسولون بعد ان اخذوا من « بليق » ؟ لقد القى عمر هذا السؤال على نفسه مرارا • والاشخاص الذين شهدوا هذا الترحيل ظلوا بعد ذلك في هم • ان رغبة عمياء في انزال العقوبات كانت ما تنفك تزداد ضراما في نفوس الاوربيين • كأن النوع الانساني لبث يجهل الشر الى ذلك الحين ، ثم اذا بالحياة تمتلىء فجأة بالمناظر الكريهة والحوادث المضطربة •

كان ينبغي قبل كل شيء الرجوع الى مصدر هـذا التكاثر الهائل في المتشردين • انهم كلما دفعوا عن المدينة ازدادوا تهافتا عليها • ذلك ما كان يتكرر كل يوم • والحاذق الحاذق من يحزر ، على كل حـال ، هل الذين يهبطون المدينة هـم أولئك الذين أخرجوا منها فغابوا عنها غيبة قصيرة ثم لم يلبثوا ان فروا عائدين، أم أنهم وافدون جـدد ، والحاذق الحاذق من يحزر أيضا هل اقامتهم ههنا هي خاتمة مطافهم ، أم أنهم لا يمكثون في المدينـة الا الى حين ثم يولون وجوههم شطر أمكنة أخرى فعلَ الطيور المهاجرة تدفعهم غريزة خفية • ان المرء لا يستطيع ان يعرف شيئا عن ذلك • وهو فوق هذا كله لا يستطيع ان يميز بعضهم عن بعض • انهم جميعا سواء : وجوههم المنكسرة المتنفشة ، الغبار

الاسمر الذي يكسوهم ، الاسمال الرثة التي يلبسونها ، النظرات المسدودة التي يجيلونها ، الاجسام المتهالكة التي يجرونها جرا ..
وكانوا يسخرون بعالم النظام والاغنياء الذي يجاورونه .

ما كانوا يرون أن يفعلوه هو أن يعسكروا صفا على حافة الطريق ، وقد اداروا ظهورهم للمارة .

حتى الفنادق الموسرة أصبحت لا تستاء من هـذه الفوضى ، وحتى المباني القاسية التي تشغلها اجهزة الحكومة اصبحت لاتضيق بهذه الاهـانة . ولكن سكان تلمسان كانوا يرصـدون ، وهم يشعرون بالمذلة ، آثار الخزي هـذه ، التي اختبأت طـويلا ثم اختارت هذه الساعة لتكشف لهم عن وجهها القاسي .

وكانت قد هاجرت من واجهات المخازن ، البضائع الثمينة ، وصناديق الحلوى الفاخرة ، وعلب الاطعمة المحفوظة المشهية ، والملابس الانيقة ، والحلي الجميلة ، والساعات الدقيقة ، وسـائر ألوان الرفاه ... هاجرت من واجهات المخازن ، ولم تحلّ محلها ، اذا امكن ان يحل محلها شيء ، الا سلع رديئة ، الا بدائل كما كان يقال . فكانت هذه السلع تمكث وراء الزجاج بعض الوقت ، فتبهت ، ثم ما تلبث ان تدخل في ذلك الاغبرار العام ، في صحبة صورة ماريشال عجوز .

وقامت البلدية ببضع محاولات اخيرة يائسة . ولكن موجة البؤس الانساني لم تنحسر ، بل امتدت شيئا فشيئا حتى غطت كل الارض التي فقدتها . وكلما قامت حملة جديدة ، أسرعت أسراب

من المتفرجين تتجمهر ، فاذا بذلك الصوت يعود يردد في وسط الحشد صائحا :

ـ هؤلاء الناس ليسوا حشرات • انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال ، وهم يعيشون على أجسامنا •

كانت هذه العبارات تتردد هي نفسها كلمة كلمة على وجه التقريب ، وتنتهي دائما بصيحة عالية تقول :

ـ أعطوهم طعاما ، ذلك أولى بكم •

وظلت تلك الشخصية الخفية التي تلقي هذا الاتهام مجهولة لم تعرف • ولكن سرعان ما الف المرتادون لهجتها القروية ، القاسية الساخرة ، فاقتادهم رجال الشرطة غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا منهم بشيء ألا ، لولا تواطؤ الناس ، لقبض على الرجل الجريء منذ زمان بعيد •

واصبحت السلطات منذ مدة لا تهتم بان تنسب هذا السخر الى وجه بعينه •

ـ أعطوهم طعاما ! ولكنكم لن تقدروا على ذلك !

هذا ما كان يسمع •

والبله المتجمهرون حول « عين ليون » يرتعشون • انهم غير حانقين • ان أخوّة غامضة تشد القلوب الى القلوب •

— ٤ —

أتمت السلطات شحن عدد من سيارات النقل بأواخر فصائل هؤلاء المتسولين • فالمدينة الآن حرة • انها تتنفس •

استردت الشوارع وجهها الجميل ، كما كانت في الماضي ، وهو ماض يرجع عهده الى أمس القريب ، ولكنه كان قد أمحى في بلبلة هذه الازمان المضطربة • الناس يتجولون الآن في المدينة دون أن يصطدموا بالنفايات • غير أن حجابا من حداد حزين قد ألقته على المدينة تلك الجماعات الساغبة الوضرة التي غابت الآن عن الانظار ولكن ذكراها ما تزال ماثلة في الاذهان •

الى أين ذهبت سيارات النقل التي شحنوها بهم ؟ ماذا صنعوا بهؤلاء الرجال والنساء والاطفال ؟ آه ••• كم تبدو الشوارع أنيقـــة ؟

وعلى أن الجو لم يدفأ الا قليلا فان البرد أخذ يخفي اظافره على هون من الاشعة المتلألئة • ثم غمق لون السماء وقسا ، وما جاءت الظهيرة الا والشمس قد كثفت كما يكثف المربب ، والتهب الهواء •

وظهروا مرة ثانية • ظهروا في هذه المرة ظهورا لم يتوقعه أحد، وعددهم الآن اكبر من عددهم في اليوم الاول • تساءل الناس

عن هذه المخلوقات ما هي ؟ قيل لهم انهم يجيئون من الداخل ، من أمكنة أبعد من البلاد المحيطة بالمدينة ، وان عددا كبيرا منهم قد قطع عشرات الفراسخ • انهم يتهافتون على المدينة من أراضي الجنوب • البلاد كلها تهتز اذن وتضطرب • أنى لسكان المدينة أن يعرفوا ذلك وهم يعيشون بمدينتهم في عزلة كأنها عزلة الرهبان في الدير ؟

ثم ان الناس ما يزالون يكتفون بالمضي الى شؤونهم الخاصة، فان الهموم لا تعوزهم ، ولكل يوم من الايام نصيبه من هذه الهموم ، ان لهم أعباء تشغلهم عما عداها • ومع ذلك أغرقت هذه الاحداث اكثرهم في وجوم عميق • فما ان يذهب أصحاب الحرف الى دكاكينهم عند مطلع الصبح ، وما ان يفتح الباعة أبواب حوانيتهم ، وما ان تنتشر جمهرة العمال في المدينة ، حتى تكون الشوارع المزدحمة قد أوشكت أن تسدها جموع هؤلاءالمتسولين سدا • وكانوا يزدادون في كل ليلة عددا •

الحق أن منظرهم خشن مفرط في الخشونة • كان كثير من الناس اذا لقوهم أمامهم لاول مرة ، لم يروا فيهم ما يجذبهم اليهم ، ونفروا من خشونتهم • وكان بعض الناس يشيحون بوجوههم عنهم مروعين وهم يقولون : « لست أعرف نفسي في هؤلاء » •

الملامح الغائرة ، والعظام الناتئة ، واللحى الشعثاء ، ذلك كله ليس يلفت النظر كثيرا في هؤلاء الصعاليك : ان هذه الرؤوس

التي كأنها رؤوس خراف ، شائعة في الريف • وأنهم صامتون لا يتكلمون ، ساكنون لا يتحركون الا قليلا ، فذلك معروف في ضعاف العقول • غير ان هناك شيئا واحدا يخطف البصر فيهم : هذه الاعين الثابتة المسحورة •

ورتبوا امورهم (مرة أخرى) من أجل ان يعسكروا في الطريق العام• كانالاوربيون ، اذا صادفوهم ، يظهرون الامتعاض والاشمئزاز • فكان عمر يشعر من ذلك باستياء : انه يحس ، شاء أم أبى ، أن هؤلاء الحفاة منه وأنه منهم •

ودّ عمر لو يعرف كيف كانوا يستطيعون ان ينتشروا في كل مكان • انهم كلما أبعدوا وكلما طُردوا عادوا وقد ازدادوا عددا حتى أن السلطات نفسها قد دب اليها اليأس •

اما عن التحدث اليهم ، فان المرء ليراهن انهم يتكلمون لغة أخرى •• ثم انهم لا يظهرون اية حاجة الى عقد أية صلة بالمدينة • كان يبدو عليهم ان مشاغل أخرى تملأ رؤوسهم ، وتضعهم في خارج هذا العالم • على أن عددا كبيرا من السكان اصبحوا يعطفون عليهم بعد تفكير ، وأصبح الناس لا يستاؤون منهم رغم أن مظهرهم المتجهم لا يشجع على التودد اليهم والعطف عليهم • وكان بعض الناس اذا رأوهم جالسين جنبا الى جنب ، آباء وأمهات وأبناء ، وهم يقضمون كسرة من الخبز قاسية كأنها الحصى ، يذرفون عليهم دموعا من شفقة •

ولئن كانت جموعهم ما تنفك في ازدياد ، فانهم لايصبحون من

ذلك أشد جرأة ولا أكثر ثقة بأنفسهم . وكانوا يمضون باحثين عن أمكنة جديدة في غير انقطاع ، لا يبدو عليهم انهم سيعودون أدراجهم الى حيث كانوا .. ولكن .. ولكن أكانوا يتخذون المدينة ملجأ لولا ان مكثهم فيها الى حين ؟

وما هي الا فترة قصيرة حتى اصبحتَ لا ترى أسرة من الاسر ، مهما تكن فقيرة ، الا وتقدم اليهم شيئا من طعام . صحيح ان ما يقدم اليهم لا يزيد على كسرة رقيقة من خبز ، ولكن هذه الكسرة الرقيقة من الخبز كانت تُقدم اليهم على كل حال . أضف الى ذلك ان شعورا بالتضامن قد أخذ يدفع نحوهم كل فرد من الافراد .

وكان الاوربيون بطبيعتهم لا يمارسون الصدقة ، لذلك كان هؤلاء المتسولون لا يذهبون الى بيوتهم مستعطين . ان الاحياء التي يسكنها أناس من أصحاب الحرف والعمال والباعة المتجولين وغيرهم من فقراء الناس ، هي التي كانت من بين سائر الاحياء تهبُّ الى التخفيف عنهم . كانت أبواب البيوت التي لاتوصد ابدا تستقبل منهم مواكب لا تنقطع .

وفي جوف الليل ، بينما الناس نائمون ، كانت ترتفع في بعض الاحيان على حين فجأة شكاة اليمة . وتظل الشكاة تترنح الى غير نهاية في خلال الشوارع الصغيرة المظلمة ، تتلمس طريقها من وراء الجدران ، الى قلب غاف من قلوب البشر .

حتى دار سبيطار اصبحت منذ ذلك الحين تجد السبيل الى مساعدة هؤلاء الاقرباء الجدد الذين اتت بهم النكبة .

كانت عيني تقول :

ــ هؤلاء أخوتنا دما ، وضيوف ارسلهم الله الينا ، فأهلا بهم وسهلا • ولسوف نستقبلهم ولو لم يكن في بيتنا ما نقدمه اليهم غير الماء ، وسيفهمون ان بنا من الفقر والعوز مثل الذي بهم تقريبا• مايزال في هذا العالم رحمة • لن يقال اننا طردنا اخوتنا لاننا نملك مأوى ولا يملكون ••

والحق أن حياة دار سبيطار لم تكن بالحياة الرخية ، حتى ان أهلها كانوا يطلقون عليها اسم : اللعينة ، ومع ذلك كانوا يرونها على علاتها ، أهلا لان يتعلقوا بها ، وان يساعدوا غيرهم على ان يحيوا •

وكثر عدد الموتى في أثناء ذلك • ما أكثر الفقراء المساكين الذين كان يطلع عليهم الصباح وقد لفظوا أنفاسهم الاخيرة دونما جلبة !

وما اكثر الاحياء الذين كانت وجوههم الملطخة بالوحل ، وشفاههم المضمومة ، تسود اسودادا غريبا ! • وهذا بعضهم يزحف زحفا بطيئا الى مخابىء مجهولة ، ثم يختفي عن الانظار ، فما يراه بعد ذلك أحد •

كان هؤلاء الناس يستأذنون العالم بالانصراف ، في تكتم لا نظير له ، حتى لكأنهم يعتذرون عن ان عليهم ان يموتوا • كانوا يموتون •• فيفحصهم طبيب البلدية الشرعي ، فيشهد بأنهم ماتوا •

— ٥ —

لو رأيته يدلف الى الكهف لقلت انه سقط اليه سقوطا كحجر ، ولم يدخل فيه دخولا • هكذا هبط الى الكهف ومضى يجثم قرب صقالي • ان أنفاسه تهدر • وخيم صمت كبير • انه واحد من اولئك المتشردين البؤساء الذي يملأون رحاب المدينة • ألقى على الحائكين نظرات كأنها أسنان المخارز ، وكانت تحيط بوجهه هالات من ظلال • تذكر عمر المتسول الذي مد اليه خبزه في ذات صباح وهو آت الى المعمل • ان له هذا الوجه القاسي نفسه ، وهذه اللحية الشعثاء نفسها في الخدين الغائرين •

قال الرجل بعد لحظة :

ـ اسمي محمد عود الشيخ • أنا مزارع من بلدة بني بوبلان (قال ذلك وهو يشير بيده الى جهة الغرب) • لم يبق لي شيء ، فقدت كل شيء ، كل شيء : أرضي ، وامرأتي ، وأولادي ••• أحالني رجال القانون بهيمة ضالة •

كان صوته هادئا ، فاترا • وكان يتأمل الجدار المتقشر الكلس أمامه • كانت النافـذة العالية تبعثر نورا مضطربا على جسمه الغاطس في ثنايا جلبابه الخشنة • وصمت • وصعد الصمت من تحت الارض •

راح عمر يستعرض ذكرياته • بني بوبلان • **يا للايام الجميلة التي تجري هنالك هادئة على تارجحات الضياء ••**

ولكن اللهجة الحجيرة التي يتكلم بها المتشرد لم تلبث أن أخرجته من أحلامه :

ــ الله يحميكم •••

قال المتشرد ذلك ولم يضف اليه كلمة واحدة • والحائكون قد جمدت عليه أبصارهم يرقبونه صامتين •

ثم اذا بأصوات ضخمة يعلو صياحها عند مدخل المعمل ، واذا برجال من الشرطة يهبطون درجات السلم مسرعين ، وقد أخذت أقدامهم المثقلة بنعالهم ذات المسامير تتدحرج على الدرجات تدحرجا • ابتلعتهم ظلمة الكهف ، ولبثوا لحظات لا يعرفون الى أين يتجهون ، وعيل صبرهم اخيرا فصاحوا يسألون الحائكين :

ــ هيه ••• أنتم • اننا نبحث عن شخص هارب ، أفليس هو هنا ؟

ولكنهم كانوا قد لاحظوا الهارب متجمعا على نفسه في ركنه • فهجموا عليه ، وانهضوه من ذراعيه ، وجروه • استسلم الرجل لهم • غير أنه حين صار من السلم في منتصفه وقد أحدق به رجال الشرطة ، التفت نحو العمال ، فألقى عليهم نظرة أخيرة • كانت نظرته غارقة في حزن قاتل ، وقد غارت عيناه •

لم ينطق أحد من الحائكين بحرف • وأحس عمر فجأة كأن حبلا ينعقد على عنقه ويخنقه • تساءل : لماذا ؟

* * *

قال شول من بين لثتيه :

ــ كيف كانوا يستطيعون ان يعيشوا من الارض ثم أصبحوا اليوم لا يستطيعون ذلك ؟ هل رقعة الارض ضاقت ؟

فأجاب الامين مدمدما وهو لا يريد ان يتجه بالكلام الى شول بالذات :

ــ من رأى حالتهم ، من رأى حالتهم حق الرؤية ، لا يرضى لنفسه أن يتكلم في حقهم كيفما اتفق ...

ــ اعلم ، اذا شئت ان تعلم ، ان البشر هم الذين تكاثر عددهم • هل كان في الماضي مثل هذا العدد الكبير من الفلاحين ؟ أبدا ...

قال عكاشة :

ــ لماذا لا تذكر الاراضي التي سُرقت منهم ؟

ــ لو عرفوا كيف يدافعون عن أراضيهم ، لما استطاع أحد أن يأخذ منهم شيئا • ان الله قد أربى عددنا وأضل عقولنا • أنظر كيف يزداد انتشارهم في شوارعنا ؟ ما عساكم تقولون في هذا ؟ حماكم الله •

ـ سيأتي الاوان ...

ـ أي أوان ؟ الم تسمع بالقول المأثور : لو كان يباع ما رموه ؟ كذلك شأن هؤلاء ... فليأت الاوان .. وسنرى .

فتنحنح حمدوش ، مادا عنقه ، مائلا بصدره الى أمام ، وقال :

ـ المسألة ليست هذه . لماذا لا تتكلمون عنا ؟ اننا لا نريد ان نسبب لانفسنا المتاعب ، وخاصة من اجل فلاح ... ما شأننا نحن به ؟ ان الله هو الذي يحق الحق .

قال ذلك وتغضنت زاويتا عينيه ، وانشمرت شفتاه .

ـ من ذا الذي يجرؤ أن يقول اننا جبناء ؟ من ذا الذي كان يمكن ان يفعل غير ما فعلنا ؟ من الذي يستطيع ان يساعد رجلا تطارده الشرطة أيها الاخوان ؟ لا أحد . والا كان يعرض نفسه لخطر كبير ... والا كان مجنونا . كل ما هنالك ان الرجل قد أخطأ صنعا حين لجأ الى هذا المكان . لقد كان يمكن أن نفعل شيئا ما ، ولكن ..

كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحجر يرشق بها رفاقه . وفجأة أخذ يضحك ضحكة طويلة مضت تصطدم بعتبة الكهف وتترجع بين جدرانه .

ـ ماذا تقول ؟ لم تقل شيئا ؟ تخشى السوط ؟ فهمت . اننا راضون عن مصيرنا ، وهذا المصير أشبه بصخرة مربوطة بأعناقنا .

قال حمزة :

سوف يُهدّم هؤلاء الرجال بلادنا ويعيدون بناءها من جديد.

فقهقه الاحمر قهقهة قوية .

ـ ونحن ، ما الذي سنعمله ؟

تابع حمزة يقول :

ـ البلاد في مخاض هادىء . والبلاد هي هم . لقد أخذوا يسيرون ، فالبلاد هي التي بسيرهم تسير .

قال عكاشة متمتما :

ـ هم جزء منا .

وأظلم وجهه الذي تغطيه لحيته الملتهمة السوداء .

وعاد حمدوش يسأل :

ـ ونحن ما الذي سنعمله ؟ نحن أناس أقرب الى الغلظة ، فلعل من الاحسان الينا ان يصار بنا الى الزوال ...

قال شول منكرا :

ـ هؤلاء الناس لا يشبهون أحدا .

وتثاءب تثاؤبا طويلا ، ثم عاد وجهه فصار من حجر ، وجمدت عيناه فكأنهما من زجاج .

— ٦ —

غضب عكاشة :

ــ اننا لا نعرف شيئا عما عانوا ، ولعلنا لن نعرف عن ذلك شيئا في يوم من الايام • انهم يتوافدون من اراض اصابتها اللعنة •

عاد شول يقول في تثاقل :

ــ انظروا كيف يختالون في المدينة ، وينامون أينما اتفق ، ويزحمون الشوارع •

ــ كأن اوروبيا هو الذي يقول هذا الكلام !

ــ لماذا ؟ أي ضير في أن نقول هذا الكلام ؟ اعترف أنهم قد ألفوا ان يعيشوا كما تعيش البهائم • والاوربيون حين طهروا منهم المدينة عدة مرات لم يفعلوا الا ما كان يجب أن يُفعل • غير أن أصحابنا هؤلاء جنس من البشر لا يقدر عليهم شيء ولا يقدر عليهم أحد ••• لا يقدر عليهم الا الذي خلقهم •• اذا قدر •

ثم أضاف شول بعد لحظة من تفكير يقول :

ــ اني لاتساءل ما الذي كان يمكن ان نصير اليه لولا ان عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رؤوسنا • اني لالقي على نفسي

هذا السؤال حقا ... لولا هذه العصا ، لاكل بعضنا بعضا ، ما في ذلك ريب !

قال ذلك ، وسعل ينظف حلقه ، وبصق ، وأضاف :

ـ اننا شر من الذئاب ..

فما كان من حمدوش الا أن رشقه بالفاظ فاحشة ، وقال :

ـ ليس مؤكدا ان لك تحت سروالك مايبرهن على أنك رجل.

فرد شول بحركة بذيئة ، فضج عدد من العمال يضحكون ضحكا صاخبا بينما اخذ آخرون يدمدمون متذمرين .

فكر عمر في جميع اولئك المتسولين الذين يطوفون بالمدينة ، بؤساء في عزلتهم هذا البؤس كله . فهدرت في نفسه حركة من تمرد وحنق على رفاقه في المعمل . انه يود لو يصفع بقبضته هذه الوجوه التي تكشر ساخرة في عتمة الكهف . وأحس بظمأ شديد الى الهواء الطلق . واستمر الحائكون ينقض بعضهم على بعض وهم يوشكون ان يتناهشوا تناهش الكلاب المسعورة .

قال الامين متمتما في لحيته :

ـ يجب أن يعيش بعضنا لبعض ، فيكلأنا الله بعنايته .

وازداد وجه عكاشة اظلاما ، ثم لم يحفل بالحديث الذي يدور. كان صوته ، في الكلمات الاخيرة التي نطق بها ، قد تحجب فجأة حتى لكأن الكلام لا يسعفه . وقام بحركة يابسة عصبية . وكان عمر يراقب عينيه وهما تتقدان قاسيتين .

قال مولاي بو أنور يئن بصوته النحيل الرتيب :

ــ علام المناقشة في هذه الامور ؟

ثم أخذ يسعل ، وصعدت الدموع الى عينيه ، وأخذت تتدحرج على وجهه الذي يشبه ان يكون من شحم زنخ ، دون ان يبدو عليه أنه يشعر بذلك .

قال حمدوش وهو يهز رأسه :

ــ اسمع . اننا نتناقش في هذه الامور لاننا ... في أي أمر آخر تريد ان نتحدث ؟

وصمت . ثم نظر الى مولاي بو أنور نظرة ليست معهودة فيه ، لقد كان في هذه المرة جادا واجما .

ازداد سعال مولاي عنادا . كان الحائك قد بلغ من انحنائه على نوله ان رأسه يلامس الاسطوانة .

قال له الاحمر في رفق :

ــ حقا ! ألا انك لعاقل حكيم . علام تتحدث في هذه الامور ؟

* * *

— ٧ —

ـ حين كنت في مثل سنك ...

قال عكاشة هذا ولم يزد . ثم ربت على كتف عمر وقال :

ـ آه ... دعنا من هذا .

هذه اول مرة يجيء فيها عمر الى هذا المقهى . كان سروره بوجوده في هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة .

ان عمر صامت ينظر فيما حوله ، وهو يشم رائحة الماء الرطبة في قادوس عفن . كان ينتظر ما سيقوله عكاشة . ولكن عكاشة يسأله :

ـ قهوة أم شاي ؟

فتردد الصبي ثم أجاب :

ـ شاي ؟

فصاح عكاشة :

ـ واحد قهوة ، وواحد شاي ، يا معلم .

كان صاحب المقهى يعمل وراء بسطة صغيرة ، في ظل تتلألأ فيه أواني الخزف البيضاء ذات الازهار الزرقاء ، المصفوفة في

« الوجاق » ، فلم يقل شيئا ، ولكنه سرعان ما أخذ يتناول من بين أدواته ما هو في حاجة اليه .

كان عكاشة جالسا قبالة عمر ، مديرا ظهره للشارع . ولم يكن في المقهى كثير من الناس .

جاء المعلم بالقهوة والشاي .

ان الجدران المتدخنة الحالكة السواد تلقي في القاعة ظلا هادئا مريحا . وكان الزبائن الاخر لا يتبادلون الا كلمات قليلة من حين الى حين . وبينما كان عمر يحدق الى الازدحام الساطع في الشارع ، تناول قدح الشاي المحرق الذي تطفو على سطحه خصلة من نبات النعناع ، فحمله الى شفتيه ورشف من السائل الذهبي اللون رشفة طويلة .

تنهد عكاشة ، ثم ابتسم وقال :

ـ أنا قلق .....

فأعاد عمر قدحه الى المنضدة .

وتابع عكاشة يقول :

ـ انني لم أكن هادئا من قبل ، فكيف وهؤلاء الناس يملأون المدينة الآن .

ـ أوه ... لا خوف منهم .

ـ طفل .

وأخذ عكاشة يضحك ، لكنه لم يلبث أن عاد الى عبوسه .

ـ انني لم أكن هادئا من قبل ، غير أنني منذ رأيت هؤلاء الناس اصبحت أحس بحمل ثقيل يجثم على كتفي ...

لم يتكلم عمر ، وقد أزعجه أنه أساء فهم معنى الكلمات التي قالها صديقه .

وصمت عكاشة أيضا . وسمعا ، خلال هذه البرهة القصيرة من السكوت ، الكلمات المتباعدة السريعة التي كان يتبادلها جيرانهما من حين الى حين . قال عكاشة :

ـ لقد ازداد قلقي .

وطاف ببصره على الجدران القاتمة ، وتأمل « الوجاق » الذي يشبه أن يكون ضريحا صغيرا مزينا يشع بياضه في عتمة المقهى الفقير ، وحدّق الى المغلاة العالية الموضوعة عليه ، ونظر الى صاحب المقهى الذي كان قدامه ، ثم تطلع الى عمر فقال له انه يحس ان شيئا جديدا قد نبت في نفسه . وسأله :

ـ أأنت مؤمن بالله ؟

فتعلثم الصبي وقال :

ـ أنا ...

وتفرس في وجه صاحبه ، ثم أضاف :

ـ لا أدري ....

وكان رجل قصير ذو لحية قوية يجلس على مقربة منهما ، فضحك ضحكة متخفية لم يلبث ان نقلها الى سائر الزبائن ، فالتفت عمر وعكاشة الى وراء بحركة واحدة لينظرا اليه . سأل عكاشة صاحبه :

ـ أصحيح حقا أنك لا تعرف ؟

قال ذلك وعيناه تتأملان الفراغ . فلم يجب عمر بشيء .

فخفض عكاشة رأسه ، ولبث صامتا لا يتكلم .

ان الفتى ينظر قلقا ، من فوق كتف رفيقه ، الى الشارع المليء بالضياء والحركة والضجة .

قال عكاشة :

ـ يخيل الي انني أصبحت غير مرتاح الضمير .

قال ذلك بصوت مختنق ، ثم رفع عينيه ينظر الى عمر ، وأضاف بصوت عال :

ـ أوه ... لست آخذ على نفسي شيئا بعينه .

ثم دمـدم :

ـ وانما أتكلم بوجـه عام .

وتابع يقول :

ـ ليس يكفي المرء بعد الآن ان يكون مؤمنا حتى يرتـاح

ضميره • طبعا ••• أنا أتمنى لو كان ايماني مصحوبا براحة في ضميري • ولكنني مؤمن وغير مرتاح الضمير •

وفجأة صاح بعنف مكظوم خفق له قلب عمر :

ــ لكأنني لم يبق لي في هذه الحياة شيء أعمله • يمينا ان هذا هو ما اشعر به •

قال ذلك وهو يغرز في عمر نظراته السود المتقدة •

ــ نعــم •

أحس عمر بأنه تعيس • وأخذ عكاشة يضحك ضحكا خافتا • ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك ، وغرقا في ذلك الصمت الذي يغرق فيه رواد هذا المكان ، اذ يظلون ساعات طويلة جنبا الى جنب دون ان يتبادلوا كلمة واحدة •

وخرجا بعد قليل • الناس يسيرون في الضوء الازغب ، وكأن شمس الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمعة • ان عمــر ما يزال يفكر في أقوال عكاشة • ان ما لهذا الحائك من حركات هادئة ومزاج معتدل ، على تحفظ ، يبث الطمأنينة في النفس • ان المرء لا يستطيع الا أن يتأثر بهدوء عكاشة ، خاصة اذا كان يعرف ذلك الطبع الغريب الذي يتصف به الاحمر مثلا • كان عمر يشعر بأن لعكاشة مزاجا يفيض بالعاطفة حقا • ومع ذلك لم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك الاضطراب الذي أيقظته فيه أحاديث عكاشة •

وفيما كانا يسيران انبجس من سيل المارة شيخ ذو وجه عريض متحبب ، يرتدي أسمالا رثة ، ويتلمس الطريق امامه بعصا طويلة . انه يقضم أثناء سيره كسرة من الخبز ، ويصيح بصوته القوي من حين الى حين :

ـ حسنة يا اخوان ، حسنة للاعمى المسكين .

ان عينيه الميتتين تحت جفنين أحمرين منتفخين تبدوان حانقين . انك تقرأ آيات شقاء بهيمي على وجهه المتغضن الذي تجتاحه لحية كثيفة قذرة ملطخة باللعاب .

كان عكاشة يصطدم به دون ان يراه لولا انه تلقى العصا بين ساقيه ، فأخذ عندئذ بيده ، ورده الى طريقه .

وعند « باب بومدين » كان هنالك حشد كبير من الناس يتكسبون فهذه نساء وبنات صغيرات يمتدحن ارغفة خبز الشعير التي يحملنها للبيع . وهؤلاء رجال من تجار الامتعة العتيقة قد فرشوا على الارض انواعا لا حصر لها من الاطمار القديمة . وهؤلاء قصاصون قد تحلق حولهم العاطلون فهم يحكون لهم بصوتهم الصادر من أسفل الحلق كصوت اهل الجنوب ، سير أبطال الزمان القديم . وهؤلاء باعة متخفون متعجلون خائفون يتسللون بين حشود الناس ، ويغمزون المارة عارضين عليهم سلعا من السلع التي لا يجوز الاتجار بها : سكر ، صابون ، زيت ، دقيق ....

ان سوقا سوداء قد قامت في هذا المكان في أيام التقنين هذه .

فوراء هذا العالم الذي يغلي ويفور ، وراء هذا العالم الذي لا يُخفي بؤسه ولا يحفل به ، انما كان رجال الشرطة ، الذين ينتمون الى عالم آخر ، الى العالم الذي يهدد ويتوعد ، يسودون ويحكمون ، كآلهة لا سبيل اليها وليست اشخاصا بأعينها .

هكذا تجول عمر وعكاشة في الشوارع خلال فترة من الوقت ثم افترقا .

* * *

— ٨ —

كانوا يأكلون ، فبعض يأكل خبزا وقليلا من مصالة اللبن ، وبعض يأكل خبزا وقليلا من الزيتون ، وبعض يأكل مع الخبز بطاطس طبخت بكثير من الماء وقطرة من زيت • انهم يمضغون طعامهم صامتين •

وفوق رؤوسهم تتدلى شباك طويلة من شباك العنكبوت وهي تترجح متراخية كسلى • وعلى الارض غطاء أبيض من غبار يرمونه ببصقاتهم من حين الى حين • والغبار نفسه يتشبث بجميع الاشياء سبائخ دقيقة ناعمة ، فهو يغطي أخشاب الانوال والجدران الخشنة واسلاك الكهرباء والحبل المنشور من اول المعمل الى آخره •

وانتهى حمدوش من التهام طعامه أول المنتهين ، على عادته في السرعة المهتاجة • حتى اذا مسح فمه بقفا احدى يديه ، اتجه بالكلام الى عكاشة يسأله بلهجة ملتبسة :

ـ قل لي ، هل صحيح أنك انخرطت يوما في السياسة ، ثم عضضت أصابعك ندما على ما فعلت ؟

ـ السياسة ؟ جميع الناس يعملون في السياسة •

ألقى عكاشة نظرة هادئة على حمدوش دون ان ينقطع عن تحريك فكيه ، فاستاء الاحمر وعاد يقول :

ـ لست أفهم ما تريد أن تقوله . أنا مثلا أهتم بعملي ولا اكترث بشيء عداه .

ـ وأنت تعمل في السياسة ايضا .

وفي أثناء ذلك انطلق شول يضحك ساخرا من هذه التصريحات التي ادلى بها حمدوش ، ذلك ان حمدوش هو بين سائر العمال اقلهم مواظبة على العمل واستمرارا فيه . كان لا يكاد يعمل في معمل حتى يهجره الى غيره ، وبذلك طاف المدينة كلها من أقصاها الى أقصاها .

ـ غريب . وهل حين أذهب الى زازا اعمل في السياسة ؟

قال حمدوش ذلك وأخذ يقهقه قهقهة عالية من شدة فرحه بمزحته الموفقة . وزازا هذه مومس من الاحياء الدنيا ، وهي أثيرة قلبه .

كان الآخرون صامتين لا يتكلمون . وفي أعلى ، من خلال زجاج النافذة العالية ، كانت ترى اطياف مارة يسيرون غارقين في ضوء أغبر . وكانت جلبة الشارع تصل الى الكهف ، غير أنها تصل اليه ضعيفة لا تفهم .

ـ المفتش نفناف ...

قال مصطفى رزاق ذلك ، وانقطع عن الكلام وتمطى طويلا ، ثم تابع يقول :

ـ المفتش نفناف ، قال لي وهو يخرجني ذات يوم من باب السجن : « ألا تستحي أن تقضي حياتك كلها في السكر ؟ يجب أن تعود الى رشدك » فأجبته بقولي : « لقد ظللت طوال حياتي أعمل فرأيتني بعد ذلك العمل واقفا حيث أنا لا أتقدم الى أمام خطوة واحدة . لذلك قررت ان لا اعمل الا من أجل ان اكسب ما ادفعه ثمن الخمر » فقال لي وهو يدفعني الى خارج السجن : « لسوف تفطس من ذلك » ، فوددت لو أجيبه قائلا : « أنا أسكر فأسلو ، أما أنت ، يا غبي ، فما سبيلك الى السلوان ؟ أهو تعذيبك لاخوتك البشر ؟ »

وأجال مصطفى رزاق نظرته الحالمة في المعمل . ان وجهه طويل نحيل . وأضاف يقول :

ـ ما الفائدة من الحياة ؟ لا فائدة منها .. لذلك أشرب ، وأنا أثناء السكر ، أنسى حماقة البشر .

قال حمزة :

ـ ليس هذا بأكيد .

فلم يجبه الآخر ، ولكنه رفع قبضة يده وهوى بها على أحد الانوال .

ـ جائز .

قال شول مازحا :

ـ عدا هذا ، أنت مسرف في حب الشراب .

فتنهد رزاق ، ومال برأسه ذات اليمين وذات الشمال كمن في صدره كلام كثير يطول شرحه .

كان حمدوش جالسا على احدى درجات السلم ، منزويا ، عاقدا يديه على ركبتيه ، يصغي الى الاصوات المبهمة التي تقوم في الشارع الصغير . ان وجهه الجميل المتناسب القسمات يعبر الآن عن استغراق في التفكير . شفتاه ممطوطتان ، وقميصه الازرق ينحسر عن صدر ابيض تنتشر عليه شعرات شقر . قال مدمدما :

ـ هذا كله ليس له كبير قيمة .

ـ زازا وحدها هي التي لها قيمة في رأيك .

قال شول ذلك وتفلطح فمه الذي لا اسنان له ، فتثاءب ثم أردف ينق :

ـ أنتما متلازمان ....

حين سمع الاحمر اسم صاحبته حملقت عيناه . واقترب حمزة من عكاشة فسأله بلهجة الاسرار :

ـ هل سجنت ، أنت ؟

فلم يجبه عكاشة .

صاح حمدوش :

ـ السياسة ، ما السياسة ؟

فارتفع صوت حمزة يهتف :

ــ يا جزائر ، يا جزائر ، أين رجالك ؟ من ذا الذي سيوقظهم من سباتهم ؟ لقد اشتدت كروب الشعب ، لقد اتسعت كروب الشعب .

فصرخ حمدوش صرخة كبيرة انتفض لها المعمل كله ، ثم تظاهر بأنه يبكي بكاء متقطعا :

هي هي هي ....

تابع حمزة :

ــ السياسة شيء معقد يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة به . فبعض يقول : يجب اعطاء جميع الاراضي للفلاحين . وبعض يقترح : «اعطونا كل شيء ونحن نوزع على ابناء الشعب بالعدل» .

وهكذا ترى ان السياسة تعني برخاء بني البشر .

قال الاحمر :

ــ طيب ... ولكن نحن ... نحن الحائكين ؟

ــ نحن ؟ نحن زبالة .

فألقى حمدوش نظرة احتقار على حمزة ، وأشاح بوجهه عنه . قال مدمدما :

ــ من حكم عليه بالاشغال الشاقة ، وخاصة من حكم عليه بالاشغال الشاقة منذ قديم ، ليس الا حمارا ببردعة .

وكان قوطي الامين معتزلا في ركنه من المعمل يتمتم على عادته . انه يحرك شفتيه كثيرا ، دون ان يرفع صوته ، كأنما هو يستعرض افكاره ثم يستعرضها الى غير نهاية .

وحين فرغ عمر من تناول طعـامه ، مضى يلتحق بالصبيين الآخرين اللذين ابتعدا الى آخر المعمل ، وجعلا يرشقان شفار القصب في الهواء ثم يستقبلانها على قفا اليد وهما يتصايحان .

* * *

— ٩ —

قال صاحب المطعم :

ـ أخذ النهـار يطول .

وفكر لحظة ثم أضاف :

ـ لقد لقي هتلر من يقف في وجهه في الشرق .

وصمت . ولكنـه ، كمن لم يفصح عن كل ما في ذهنـه . استأنف كلامـه :

ـ سوف يعلمه الروس كيف يعض التراب ، هذا لا شك فيه .

فهز عكاشة رأسه هزا خفيفا لا يكاد يرى .

كان المعلم واقفا وراء بسطته المحملة بأطعمة بائتة . وكان عكاشة مستندا بكوعيه الى احدى الموائد الطويلة في المطعـم الفقير ، يتأمل كأس الشاي الموضوع أمامه ، الذي تنقع فيه أوراق الابسنت ، وقد وضع يده على خده ، وراح ينشق من سيجارته أنفاسا مطردة .

ان عمر يحس بهذا الزمان الذي يجري احساسا يشبه أن يكون جسميا . وكان في المطعم رجل آخر ، فلاح يدل مظهره

على أنه حمـــال ، وشابان في نحو الثامنة عشرة او العشرين من عمريهما ، عاريي الرأسيين ، يرتديان ملابس الزي الاوروبي • ان الجلبة التي يحدثها زبائن المقهى تختنق في هذا الجو الذي ينضح دهنا ، والذي أصبحت رائحة الطعام الكريهة جزءا من هوائه وموائده الخشنة الخربة وأرضه السوداء ومقاعـده المهترئة • والقاعة يعوزها النور ، فضوء النهار ينخله زجاج بابها فما يصل اليها الا كامدا كابيا • ومن ضجة الشارع لا يبلغها الا اهتزاز خافت •

بعد ان قال المعلم تلك الكلمات رفع مغـلاة الشاي التي يضعها دائما قرب الموقد ، وملأ منها قدحا الى آخره ، ثم جاء فوضع الشاي أمام الصبي دون ان يقول شيئا ، ورفض الصبي باقة الابسنت التي مدها اليه ، لان صدره ينقبض لرائحة هـذا النبات ، فما الح المعلـم •••

كان عمر يدرك ان عكاشة قد سر بمجيئه • ان هذا الحائك يجيء الى هذا المكان في جميع أيام الاحد • انه والمعلم صديقان قديمان ، وهما كلاهما يحبان التأمل ويحبان الشاي بالابسنت •

وفي هذه اللحظة ، انفتح الباب ، فما كان أشد دهشة عمر حين رأى حمزة يدخل ويقبل عليهما مبتسما •

ـــ هيه •• جئت ألحق بالرفاق •

قال حمزة ذلك ودار حول المائدة فجلس قرب عكاشة •

ان كل حديث مع عكاشة اصبح الآن مستحيلا .

التفت عمر نحو الصالة ، ورصد الشابين اللذين يرتديان ملابس على الزي الاوروبي . انهما جالسان في وسط المطعم .

وكان حمزة يتكلم ، فاذا هو يمسك عن الكلام في منتصف جملته ، ويتمتم قائلا :

ـ لنمسك عن الهذر .

وسأله عكاشة :

ـ لماذا ؟

ـ لا لشيء .

ولم يقل السجين السابق بعد ذلك شيئا .

فقال عكاشة دهشا :

ـ أنحن الخائفون اذن ؟ يمينا انه ليكفي ان تتحرك قليلا ، حتى يوسخوا سراويلهم .

فهز حمزة رأسه .

ـ يلقون اليكم بعظمة ، فاذا أنتم تعودون الى الطاعة والرضوخ ، كالكلاب . لقد علموكم كيف تخضعون .

كان يتحدث بثقة هادئة تضفي على كلامه ثقلا كثقل البداهة.

وابتسم عكاشة ابتسامة مقهورة ، وخفض رأسه . قال مدمدما وقد أخذت يداه ترتعشان :

ـ لقد علمونا ان نخضع ... ولكن يجب أن لا يركنوا الى هذا كثيرا .

فرفع حمزة كتفيه . فرشقه عكاشة بنظرته السوداء ، ثم القى على القاعة نظرات سريعة . وظهرت تلك الابتسامة المقهورة مرة أخرى في شفتيه اللتين انعقفتا قليلا في أدغال لحيته . ان حركاته تنم عن عذاب وغم في نفسه .

دمدم السجين القديم :

ـ اذا كان الناس كما تراهم فليس الذنب في ذلك ذنبهم .

وكان عمر ما يزال يرصد الشابين وقد ثار حب الاطلاع في نفسه .

انهما يجلسان متبخترين ، على كرسيين عتيقين غاص قشهما ، وقد باعدا بين ساقيهما مباعدة كبيرة ، فليس يتفق وضعهما كثيرا مع ما في هذا المكان من شظف . وفجأة أظهرا علامات الانزعاج والتململ ، كأنما هما يُدهشان من وجودهما في هذا المكان : ان أحد اصحابهما قد دخل في هذه اللحظة . ولكن هذا ، بعد ان القى السلام على الناس بصوت عال : « السلام عليكم » ، وبعد أن سأل ، وهو ما يزال عنـد الباب ، هل في المطعم حريرة(١) ، مضى يجلس الى مائدة في الركن دون ان يحفل بهما . عرف عمر الشاب الداخل الذي أشار له بيده يحييه ، انه جمال طراز ، ابن حقيقي لاسرة من « كبار الاسر » ، فتى يشد ابليس من ذيله .

---

(١) حساء يصنع من الخميرة .

سمع عمر حمزة يقول في هذه اللحظة :

ـ هكذا ...

وسقطت نظرة الحائك الشاحبة على الرجل ، فتأمله الرجل خلال بضع ثوان في انتباه ، الا أن فكره كان يطوف في غير ذلك . ان ابتسامة داهية تمحو الآن دمامة وجهه الكثيف . تفرس عكاشة في حمزة من تحت حاجبيه الضخمين . كانت نظرته قاسية ، وكانت ابتسامته قد اختفت .

تابع حمزة يقول :

ـ لا شك أن جماعتنا عبيد ، اذ لا شيء في هذه القيود التي توثقهم يفيدهم ، وهم يتحملونها مع ذلك .

قال هذه الكلمات بصوت خافت لكنه واضح . لم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك القلق الغريزي الذي أيقظه فيه هذا الرجل ذو الجمجمة المفرطة .

* * *

— ١٠ —

ثمة شيء في القاعة كان قد تغير . ان عمر يراقب الشابين المختالين اللذين دهنا شعرهما بالزيت . لقد أمر كل منهما لنفسه بسجقتين صغيرتين مع الفلفل الاحمر داخل قطعة من الخبز ، فهما ينشبان في السجق أسنانهما ، ويزدردانه بشهية نهمة ، وما هي الا لحظة حتى أجهزا على الطعام ، فنهضا عن مكانيهما بحركة واحدة دون ان ينبسا بكلمة ، ومضيا يدفعان ثمن ما أكلاه بضع قطع من النقود وضعاها على البسطة الضيقة المزدحمة ببيض مسلوق واسياخ كبد نيء وسمك مقلي بارد وخبز مقسم قطعا .

لاحظ عمر في هذه اللحظة ان وجودهما كان ثقيلا على صدور جميع من كانوا بالمطعم ، فما ان خرجا حتى أحس الناس ان الهواء قد خف .

وحين جاء المعلم الى جمال طراز بحسائه تلبث عنده قليلا وسأله :

ـ مع ليمون ؟

فأجابه جمال طراز :

ـ لا .

ـ قطعة خبز ؟

ـ لا .

فعاد صاحب المطعم الى مكانه وراء بسطته ذات المدخل المقدود فيها . وكان بالجدار وراء البسطة كوة جعلت خزانة ونضدت فيها رفوف ، فوضع المعلم صحنا على احد الرفوف العالية علو قامته ، وادار ظهره للقاعة وجعل يأكل .

وامام مدخل المطعم كان الخـادم ، وهو فتى نحيف شديد البياض شاحب الوجه ، كان واقفا يهوّي الموقد الموضوع في كوة فوقها مدخنة . ان اسياخ الكبد الملفوفة بشحم الخروف ، المصفوفة على مشواة ، تصدر دخانا كثيرا يمـلأ القاعـة برائحة حادة من رائحة احتراق الدهن .

وفي هذه الاثناء كان حمزة يتكلم بلهجة واحدة لا يرفعهـا ابدا .

ففيما كان عكاشة يشعل سيجارة جديدة ، قال السجين القديم بسرعة وهو يلعب بلحيته ذات الشعر المنقلب :

ـ يتفق لي أحيانا كثيرة أن أتساءل عن انفسنا ما نحن ؟ نعم ما نحن ؟ هل لك ان تقول لي ما نحن يا صاحبي ؟

فقال عكاشة ساهما :

ـ ما نحن ؟

وألقى عليه محدثه نظرة ماكرة ، وقال :

ـ نعم ، ما نحن ... هل تستطيع آن تقول لي ما نحن ؟

ـ الامر بسيط كل البساطة . اننا لا نعرف ما نحن . ولعلنا في هذا العالم المخلوقات الوحيدة التي لا تعرف ما هي ، ولا الى أين هي سائرة . لو سألت أية بهيمة ، لعرفت كيف تفهمك ما تريده ، أما نحن ...

وقبل ان ينهي الرجل جملته ارتفع صوت السجين القديم يسأل :

ـ أيها الانسان ، من أنت ؟

كان ما يزال يملس ثم يخلط كثث لحيته بأصابعه الضخمة الثقيلة القصيرة وكان قد خلع طربوشه الاحمر ووضعه على المقعد قربه . وظل يعذب لحيته مدة طويلة على هذا النحو ، ودمدم أخيرا يقول :

ـ أين أنتم يا رجال الحق ؟

قال عكاشة وهو يحرك يده نافد الصبر :

ـ فلننظر في هذا الامر .

ـ يظهر أنك اختفيت من المدينة منذ بضعة أعوام لانك نظرت في بعض الامور عن كثب .

فهز عكاشة كتفيه .

قال حمزة :

ـ في رأيك ، ما الذي يحدث اذن في بلادنا ؟

ولكنه في هذه اللحظة نفسها نسي سؤاله وهمس في اذن عكاشة :

ـ أنظر الى ما يجري في القـاعة ...

فاستدار عمر على مقعده في رفق ينظر هو أيضا . كان الصبي الذي يعمل « مساعدا » للطباخ يثرثر مع الزبون الذي تدل هيئته على أنه حمال . قال له :

ـ ائتنا بما تساوي قيمته ثلاثة « دوروات » أيضا .

كان هذا الرجل ، الذي لا يراه عمر الا من ظهره ، يقحـط بملعقته في عناية طبق القصدير الذي يأكل منه ، ثم تناول الطاسة بين جوفي يديه ، وشرب السؤر الذي كان فيها ، ولم يلق على مساعد الطباخ ، من فوق كتفيه ، نظرة ضاحكة الا بعد ان فرغ من ذلك كله .

وصاح المعلم يقول له ، وقد اختبأ نصفه وراء البسطة :

ـ ائتنا أيضا بما تساوي قيمته ثلاثة « دوروات » ، فنقتسمه بحيث يصيب كل منا ما قيمته « دورو » واحد .

فضحك الزبون ضحكة خالصة ، وكان قد فرغ من تنـاول طعامه ونهض ، فقـال :

ـ اذن تريدون مزيدا ؟ بثلاثة « دوروات » ؟

وعاد يضحك دون ان يتخلى مع ذلك عن شيء من التحفظ . واتضح حين قام أنه رجل طويل القامة جدا ، وانه كذلك ذو انف

أقنى ، وان وجهه وجه طفل • كان يمط رقبته ويضحك في سذاجة •

ـ نعم ، وسنقتسمه فيكون لكل واحد ما قيمته « دورو » •

قال المعلم ذلك ، ثم لم يستطع ان يحبس ضحكه ، فأخذ يقهقه قهقهة مختنقة وفي صوته دموع • وأخذ الصبي يضحك امام موقده بصوت حاد ، وجعل الرجل الذي تشبه هيئته هيئة الحمالين ـ أتراه كان حمالا ؟ ـ يضحك كذلك بصوت ثخين • وكانت ضحكتهم جميعا ضحكة رضى وتواطؤ •

نظر حمزة الى عكاشة ثم نظر الى عمر ، وقال وهو يبتسم أيضا :

ـ ما اكثر ما يبدو في هؤلاء الناس من تفاهم وسرور ! فهل تظن أنهم في سلام مع انفسهم ؟ من ذا الذي يستطيع ان يعرف شيئا عما يختفي وراء هذا السلام الظاهر ؟

ان عمر يريد في هذه اللحظة أن يخرج • نظر الى الشارع من خلال الزجاج • لا خوف ان تهطل قبل هبوط الليل • لقد انقضى من الاصيل شطر كبير • ان عمر اصبح لا يستطيع ان يتنفس ، كأن الهواء لا يدخل رئتيه •

صف الحمال على البسطة عدة قطع من النقود ، وهو يغضن عينيه في مكر • فنهض المعلم ممتلىء الفم بالطعام ، فلمّ قطع النقد ثم رد واحدة منها الى يد الزبون •

قال الزبون :

ـ ماذا ؟ هل أعطيتك زيـادة ؟

وتقلصت جوزة عنقه ، الناتئة ، الضخمة ، وسمعت ضحكته الخارجة من الجوف ، مرة أخرى .

قال له صاحب المطعم من خلال الطعام الذي يربك فمه :

ـ بل احتفظ بهذه ، لتشرب بها قهوة على حسابي .

وضحك وهو يحاول ان يحبس الطعام الذي في فمه .

فلما اجتاز الزبون باب المطعم ، صاح المعلم يقول له مرة أخرى :

ـ سنقتسم ، لكل واحد « دورو » ...

واستطاع أخيرا أن يضحك من كل قلبه ، بعد ان بلع ما كان في فمه .

انتهز عمر هذه الفرصة ، فترك الحائكين . هو الآن في الشارع وحيد ، حر ... لكأن الهواء قد غفا ، فهو ناعم هادىء ، والمدينة تستريح في ضياء قاتم عجيب .

* * *

— ١١ —

غمامات رقيقة ندفتها ريح الصباح ، تجري في السماء الزرقاء الشاحبة جريا سريعا • أحس عمر أنه خفيف ، كريشة • فلما وصل الى الكهف علم ان زبيش مات • لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله في المعمل • صعق عمر • ان زبيش قد انقطع عن المجيء منذ أيام ، فلم يكترث أحد لغيابه • وكان عمر لا يؤمن بالموت ، مع أنه شيّع عددا من الناس الى مثواهم الاخير ••• عددا اكبر من أن يحصيه • أما ان يحدث ذلك على مقربة منه ، فهذا ما يدهشه كل الدهشة • انه لا يفهمه • وتراءت له قامة زبيش النحيلة تنهض امام عينيه • رأى الوجه الصغير الشاحب الذي يغضنه التكشير ، وخيل اليه أنه يسمع مرة اخرى تلك الحكايات الفظيعة التي كان يقصها هذا الصبي الاشوه • تذكر كيف كان الفتى يخيف نفسه بنفسه ، كيف كان ينظر الى ما حوله من جانب في اشتباه ، ويخفض صوته ، ويضع اصبعه على فمه قائلا : هس •

كان يهمس باللفظ ، فكأن كلامه آت من بعيد ، من الضفة الاخرى ، من العالم الآخر ••• لكأن كلامه صدى غائم لعالم يختبىء وراء ستار عميق •

قال شول :

ـ ... نعم ... ألم يكن موته خيرا له ؟ لقد ارتاح .

خرج عمر فجأة من أحلامه ، انطفأ في سمعه الصوت الصغير ، صوت الصبي الذي مات .

ودمدم الامين يقول :

ـ ولدوه ، فعاش ، ولعب ، وتحرك في الحياة ما شاء لـه هواه ان يتحرك . ثم ماذا ، هاهوذا قد مات ... وكأنه لم يكن..

واضاف الامين :

ـ يا أيها الناس الذين لا تحفلون الا بهذه الحياة الدنيا ، ما عساكم فاعلين بين يدي الله ؟ ... يا ويلكم من الله !

قال دلو :

ـ الشقاء ؟ خلقنا له وخلق لنا .

فحرك الامين شفتيه يريد ان يجيبه ، واهتز شعـر شاربيه ولحيته ، الا أنه لم ينطق بحرف .

قال صقالي محتجا على هذا الحديث ، وفي عينيه ذعر شيخوخة خائفـة :

ـ مات ، الله يرحمه . ما لنا ولتكرار هذا الحديث في غير انقطـاع !

تذكر عمر الجدة ماما ، وبنت العم الصغيرة ، اذن لقد مضى الصبي الفكه يدركهما في عالم الاموات . لا حيلة للمرء في رد هذا القضاء . انقبض قلب عمر .

وبعد بضع لحظات جاء ماحي بوعنان ، وقد أبلغ النبأ ، جاء الى المعمل من أجل أن يصحبه عمر الى منزل أم زبيش .

فما رأى عمر البيت من بعيد حتى أصاخ بسمعه ، ان ولولات حادة ترتفع عند آخر الشارع الضيق . والصوت ينتقل من الالم الى الدهشة ، ومن الدهشة الى أقوى تعبير عن اليأس . وفجأة توقف الصياح ، وخيم الصمت .

دخل الصبي ليبلغ أهل البيت أن المعلم جاء . ولبث بوعنان ينتظر أمام الباب . ولكن ما ان وضع الفتى قدميه في البيت حتى استقبلته ولولات جديدة . هي بكاء لا سبيل الى حبسه ، بكاء بصوت أبح لم يلبث عمر ان عرف فيه صوت عائشة ، أم زبيش . اشتدت رهبة الصبي .

كانت عائشة جالسة وسط عدد من النساء تحلقن في الفناء تحت الرواق ، وقد اخذت تلطم صدرها وذراعيها ووجهها وهي تنتحب . كانت الدموع تسيل على خديها المخدشين ، وعيناها السوداوان ترسلان نظرات كنظرات بهيمة مروعة ، والزبد يرغي على حواف شفتيها . ظل عمر ينظر اليها ناسيا المهمة التي جاء من أجلها ، وينظر الى هذه النساء اللواتي يبكين معها . ولكن عائشة عرفته ، فتأملته لحظة وهي ترتعش ارتعاشا شديدا ، وقد افلتت غدائر شعرها من المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له اخيرا ان يقترب ، فمضى اليها متسللا بين جمهرة النساء وهمس في أذنها أن المعلم واقف على الباب يريد ان يراها . فنهضت على الفور

وردت غدائرها الى ما تحت المنديل وعقدته عليها • ثم مضت الى الباب مع عمر بينما اخذت النساء تثرثر •

فلما عادت يتبعها ماحي بوعنان وعمر طلبت الى النساء ان يختبئن • فهرعن جميعا الى الغرف المجاورة ، الا العجائز منهن ، فقد اكتفين باسدال الحجاب على وجوههن ولبثن في اماكنهن • دخل الرجل والصبي وعائشة الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، التي يتمدد في وسطها كفن مسجى لاح للصبي طويلا مفرطا في الطول، فتحير الصبي ودهش • لكأن الموت قد مط ذلك الصبي الصغير فجعل منه الرجل الذي لن يكونه •

جثا ماحي بوعنان على كعبيه امام جثمان الميت صامتا ، وأخذت شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هي الا لحظة حتى اخذت الدموع تتساقط من عينيه • وكانت الام واقفة تراقبه وقد شبكت يديها على بطنها ، وجف وجهها وجفت عيناها • واقتربت النساء ترصد المشهد من عتبة الباب • فقام بوعنان في عناء وهو يتنفس تنفسا قصيرا ، فهربت النساء مرة اخرى مروعات • وفي هذه اللحظة رأى الصبي المعلم يضع في يد عائشة شيئا ما ، فاذا بالمرأة القصيرة الرثة تأخذ تكيل له الشكر في اضطراب ومذلة ، ثم اذا هي تنفجر باكية منتحبة على حين فجأة •

وخرج ماحي بوعنان وعمر ، عندما عادت ولولات الحداد •

قال بوعنان بصوت خافت في الشارع :

ـ مات .... طيب .... ماذا نعمل ؟

* * *

لبث عمر بضعة ايـام في حالة من الاضطراب . كان يذهب ويجيء ويقوم بألف عمل وعمل ويجري في الشوارع الغارقـة في جو الربيع ، وهو شارد اللب ذاهل . ومع ذلك كان شعور غامض بالسعادة يغزو قلبه على غير علم منه ، ويوقظ فيه أصداء خفية عذبة لا يدرك الصبي كنهها ولا يستطيع الافصاح عنهـا .

غير ان الجو لم يلبث ان اجتاحه البرد على خلاف كل ما كان ينتظر . وعادت تغطي سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقـلا . وأخذت تهطل أمطار رقيقة بغير انقطـاع فتلف بغلالتها المبـاني والخضرة التي بدأت تنبت على اغصان الاشجار ، واطياف المارة . ان جداول صغيرة تتواثب على ارض الشارع ، ثم تجري مسرعة الى أفواه البلاليع . وعادت المدينة تغرق في أفكارها السود . وكثر جمهور المتسولين كثرة لا عهد بمثلها من قبل .

هذه الوجـوه المغلقة ، هذه الاعين التي لاتنظر الى أحد ، أتراها تعلن عن قيام عهد جديد ؟ هؤلاء الشياطين الذين يعتقـد جميع الناس أنهم لا عقل لهم ، أتراهم يعلمون من الامر ما لايعلمه غيرهم ؟

لقد عيل صبر السكان ، فأصبحوا يتجاهلون وجود هـؤلاء

المتسولين ،ولا يكترثون بهم • وكأن عودة الصحو ، رغم فترات ندمه ، قد أبعدت تلك التهديـدات الخفية التي أثقلت المدينـة في لحظة من اللحظات ، عدا أن رجـال الشرطة أصبحوا الآن يرابطون في كل ركن من أركان الشوارع •

وفي الكهف لم ينس الناس زبيش فورا ، فمن حين الى حين يروي أحد الحائكين فكاهة من فكاهاته ، أو يقلد مشيته ، أو يتذكر حكاية من حكاياته ، ثم يأخـذ يشتم الصبي على سبيل المزاح ، كأن الصبي ما يزال في الكهف يسمعه • وقد أحل محل زبيش في العمل بالمعمل فتى من الضواحي ثقيل بدين •

* * *

— ١٢ —

حين عادا الى هذا المقهى مرة ثانية ، ما ان جلسا الى احدى الموائد حتى سمعا صوتا ضخما ابح يصل اليهما من خارج :

ـ يا الله ، ساعدني يا رب ، أصبحت لا أحتمل الحياة . لماذا تنسى عبدك يا رب ؟ اقبض اليك هذه الروح التي هي ملكك ..

ثم رأيا رجلا رث الثياب مغبرا ، هرما ، مستندا بذراعه الى طفل يتهافت على الارض عند مدخل المقهى ، ويضع عصاه بين ركبتيه المرفوعتين . انه يميل برأسه على صدره كأنه مكسور العنق ، ويلبث على هذا الوضع لا يتحرك ، حتى لكأنه يغفو ، غير أن يده الضخمة ذات الاظفار الطويلة لا تدع قبضة الصبي النحيلة، بل تتشبث بها تشبث اليائس .

فلما رأى أحد زبائن المقهى هذا المنظر ، نهض واقفا بين الموائد ، ودفع شاشيته الحمراء الفاقعة ، وصاح بالمتسولين قائلا :

ـ أأنتما آتيان من الريف ؟

كان واضحا أنهما آتيان من الريف ، فسؤاله اذن من نوع الاسئلة التي لا جدوى فيها ، ولكنها تطرح دائما .

دمدم الشيخ الهرم يقول وهو يرفع رأسه في مشقة :

ـ نعم أيها المحسن .

واضطربت شفته السفلى وتركت لمجاجة من لعابه ان تقطر من فمه . ونظر المتسول طويلا الى جميع الناس من مكانه ذاك .

سأله الرجل :

ـ هل في الريف مجاعـة ؟

وكان الطفل قد تدحرج على الشيخ تدحرج الكرة .

قال الشيخ في مثل رجع الصدى :

ـ مجـاعة !

ثم شخر شخرة غريبة مزعجة . فاستدار عكاشة في هـذه اللحظة مع كرسيه نحو الباب ، ونظر الى الشيخ . كان الشيخ ذاهـلا ، مبهم العينين ، متجمد القسمات .

وقال أخيرا بصوته الاصم الثقيل :

ـ حتى عصافير ربنا تموت جوعا هناك .

ـ العصافير ؟ آه . آه . آه اذن لم يبق على الاشجار ثمار ولا بقيت بذور برّية . أتيتم أتتم على كل شيء ؟

وفغر الزبون فمه الواسع ، وانطلق في ضحكة صاخبة . ان قوة ظافرة تخرج من شخصه . وأسنانه البيضاء تلتمع في وجهه العريض الذي عني بحلق شعره عدا شاربيه الكبيرين المشدودين .

ـ من أجل الاكل ، أنتم أقوياء ... آه ، آه ، آه ، أما من اجل العمل ، فتلك حكاية أخرى . هل يمكن ان تنال المجاعة من انسان يعمل ؟ أنتم أناس تؤثرون ان تستعطوا على أن تبذلوا شيئا من جهد .

وانطلقت تلك الضحكة نفسها مرة أخرى تهز صدره الذي يشبه ان يكون صدر هرقل . فخاف الشيخ الهرم خوفا ما كان لسوط يقرقع فوق رأسه ان يبعثه في نفسه .

ـ آه ... أيها المحسن ...

فهز الرجل رأسه وقال :

ـ الارض لا بد ان تنتج دائما ... الا ان تكون الايدي التي تعمل فيها خبيثة .. وعندكم قد خبثت الايدي وخبث القلب جميعا . ان المرء يستطيع ان يستنبت الصخر نفسه اذا أراد .

كان الصبي لاطيا بالشيخ يتفرس في الرجل في عنف موجع ، وصمت المتسول كالاخرس لم ينطق بحرف .

عندئذ اتجه الرجل اليه ووضع في يده صدقة . فأخذ المتسول يدعو له بصوته الغليظ الخشن ، ونهض وهو يئن جارا الصبي من يده . ولكنه قبل ان يقف على قدميه تماما ترنح وأوشك أن يسقط . ذلك أن الصبي وقع على الارض ، وهمّ أن يوقع معه الشيخ .

عاد الزبون فجلس في مكانه ، وأخذ يتحدث مع رفيقيه في همة وحرارة .

نهض الصبي في عناء • ومضى هو والجد في الشارع الذي يقابل المقهى • غير ان نوبة من سعال طويل استبدت بالشيخ ، فتوقفا مضطرين ، ثم سمع صوت الشيخ وهو يقول للصبي مؤنبا :

ـ ان لم تقف على ساقيك تركتك هنـا •

وغابا بين الناس ، غير أن صوت الشيخ ظل يسمع متكسرا وهو ينادي في بعيد :

ـ يا اخوان ، يا مؤمنون •••

ظل عكاشة صامتا طوال ذلك المشهد • ثم عاد الى وضعه الاول امام عمر دون ان يقول كلمة واحدة ، واستند بكوعيه الى المائدة •

لبث ساكنا لا يخرج عن صمته • أخذ عمر يشتبه في النية التي كان يبيتها الحائك حين قاده الى هذا المكان ، الى هذا المقهى • كان قد أدرك ان عكاشة ينتظر منه امرا من الامور • فما هو هذا الامر ؟ أيقين أم عزاء ؟ أتشجيع أم التجاء ؟ لم يستطع عمر أن يعرف ذلك • ولعل عكاشة نفسه لم يكن يعرف • غير ان عمر أدرك انتظاره هذا ادراكا واضحا • فلما خطر بباله ذلك ، استولى عليه غضب أخفاه • ونظر الى عكاشة ، ولكن عكاشة كان خافض الرأس •

ما الذي حدث ؟ لماذا يحس بحلقه جافا هذا الجفاف ؟

اتضح الآن كل شيء : كان عكاشة يريد ان ينقل اليه ما به

من كرب • لعله كان لا يلاحظ هو نفسه ذلك ، غير أن عمر على يقين من هـذا •

وفي هذه اللحظة رفع عكاشة رأسه ، فاذا بالصبي يشعر بقلق مفاجىء • بدا له أن صديقه قد اتخذ قرارا خطيرا ، فان في وجهه كثيرا من الجد •

قال عكاشة :

ـ هل نذهب ؟

فتحير الصبي لا يعرف ما الذي يجب ان يعمله أو يقوله • ونهض عكاشة نهوض من يمتثل لامر صدر اليه ، فتناول من جيب سترته بعض النقود فتركها على المنضدة ، وترك الرفيقان المقهى الصغير المظلم الهادىء •

فما أصبح عمر في خارج ، حتى أحس بقلقه يذوب ثم لم يبق في نفسه من ذلك كله الا شيء من ارتباك في قرارة افكاره •

* * *

— ١٣ —

كذلك أخذ عكاشة يتكلم عن السفر • قال : سيترك هذه المدينة ، وسيترك الناس كلهم ، حتى أسرته • نعم سيمضي ••• وأخذ عمر يفكر • لقد كان يتوقع قرارا من هذا النوع • ولكن ، هو ، ما هو في هذا كله ؟

فهم أخيرا لماذا كان عكاشة لا يأخذ عمله مأخذ التقدير والاعتبار ، شأن سائر العمال • كان عكاشة لا يتحدث عن عمله خارج المعمل • هذا العمل الذي يستنفد اكبر شطر من حياته ، كان ينساه متى خرج من المعمل • ذلك أنه وسائر العمال ، كانوا يتطلعون الى شيء آخر ، ويؤملون شيئا آخر • ما الذي يتطلعون اليه ، ما الذي يؤملونه ؟ لا شك أنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا • ولكنهم يتطلعون ويؤملون • أما عكاشة فقد تطلع وأمل : تطلع الى السفر وأمّل السفر • أتراه كان بذلك يريد ان ينسى ظروفه أم كان يريد ان يتحرر منها ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار لعمله ، ولنفسه ، ولرفاقه ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار ؟ الاحتقار والشعور بالعار ؟ لطالما سمع عمر هذه الكلمات تتردد في الكهف :

« نحن لا قيمة لنا ، لا تتعبوا أنفسكم في المناقشة • نحن لا قيمة لنا » •

وكثيرا ما كان هذا أو ذاك من العمال يضيف الى ذلك الكلام قوله :

« هكذا خلقنا الله ... ولا حيلة لنا في الامر » .

وكان زملاؤه الحائكون ، رغم ما بينهم من فرق في السن والمزاج والآراء ، يتشابهون في هذه النقطة : انهم يتحدثون عن أنفسهم دائما في اشمئزاز . وكان عمر يفكر في هذا بحزن ومرارة لعله أخطأ في أنه لم يشأ أن يفهم اشمئزازهم . أتراهم قادرين ، بالتلمس بعد التلمس ، على ان يجدوا لانفسهم مخرجا ؟ بالتلمس بعد التلمس ؟ وعملهم ؟ فيم كان يفيدهم عملهم اذن ؟ لماذا يقومون به ما داموا يحتقرونه ؟

وفي أثناء ذلك لم يطرأ على سلوك عكاشة أي تغير . ما يزال هادئا ذلك الهدوء نفسه ، صامتا ذلك الصمت نفسه . وكانا اذا التقيا في المطعم ، ظل عكاشة جالسا لا يتحرك ، ولا يبالي شيئا ، ولبث ينظر الى أمام باتتباه لا يضعف ، بينما الوقت يمضي . كان يظل على هذه الحال مدة طويلة لا يتحول عن النقطة التي اختار أن ينظر اليها من الفضاء . ثم اذا هو ينهض ، دون ان ينبس بكلمة واحـدة ، وينظر الى عمر ، فينهض هو الآخر ، ويسيران في الشوارع التي تدحرج سيل المارة والعربات المتدفق فيها ، وتحملها في رفق ، في رفق شديد ، الى حيث لا يعرفان ، وعكاشة غارق في تفكيره ، مصيخ بسمعه ، كأن المدينة تهمس في أذنه بشيء .

وكان الحائك يزداد انطواء على نفسه يوما بعد يوم . وسأله عمر ذات مرة :

ـ ستسافر ... وبعد ؟

ولكن عكاشة أجابه :

ـ يجب أن يولى البشر ما يستحقونه من احترام . لماذا صار العالم الى ما صار اليه ، لماذا صار العالم شيئا لا يشتهي المرء ان يلقي عليه نظرة ؟ لفقدان الاحترام . ان الذين يحترمون اخوتهم بني الانسان ، لا وجود لهم اليوم على هذه الارض . كيف ينظر الينا الاوربيون مثلا ؟ وكيف ينظر ماحي بوعنان الى غيره من الناس ؟ الاوربيون ينظرون اليه على أنه « العربي » أي الانسان الذي ليس له مثل أعلى ، الانسان المتمرغ في الجهل والاهمال والاستسلام ، الانسان الذي لن يتبدل مهما يبذل من جهود من أجل ان ينظف نفسه من الوحل ، الخ .. وماحي بوعنان ينظر الينا على أننا جياع ليس لنا مثل أعلى ، على أننا أقرب الى البهيمة منا الى الانسان ، على أننا اناس كسالى نريد ان نعيش من دون ان نعمل ، الخ ...

ـ أنت تكره جميع الناس .

ـ جميع الناس ؟

وفكر عكاشة لحظة ثم أضاف :

ـ ربما ...

ـ ذلك بعينه هو ما يحز في النفس .

شد عكاشة قبضة يده ، ولوح بها لشاهد خفي لا يرى .

* * *

في ذلك الصباح ، اشتد صياح الاحمر وصراخه ، وجاء بعد لحظة الى عمر فتفرس فيه من اخمص القدمين الى قمة الرأس، ثم خلط الخيطان التي انفق الصبي ساعات طويلة في تكبيبها ، فلم ينطق الصبي بكلمة ، وعاد يصلح ما افسده الاحمر من عمله • وكان الحائكون الآخرون يعملون صامتين • ان هناك شيئا يعذب حمدوش تعذيبا خاصا في هذه الايام : لقد اصبح لغزا من الالغاز دون ما سبب ظاهر ، فهو يجتنب الناس ، ولا ينظر الى أحد مواجهة ثم اذا هو يثور على حين فجأة • ان هناك عداوة لا سبيل الى فهمها تثيره على جميع الناس ، حتى ليحس المرء أنه لا يتورع عن ارتكاب أي عنف • كان يغضب ، ويشتم ، ثم اذا هو يهدأ دفعة واحدة •

فلما فرغ عمر من اصلاح ما أفسده الاحمر من عمله ، مضى يجيء بشلل أخرى من شلل الصوف المنشورة في الخارج لتجف • ان رأسه يطن طنينا موجعا • انه جائع •

طافت في ذهنه خواطر كره وبغض نحو الاحمر • وقال في نفسه ، على غرار عكاشة : « يجب أن أذهب » •

وتساءل بعد لحظة • « ولكن الى أين ؟ ومن أجل ان انتهي الى ماذا ؟ •• » •

فلما عاد مثقلا بكبب الصوف ، انبجس حمدوش وراءه ، وهمس في عنقه يناديه :

ـ عمر •••

فأدار الصبيّ رأسه • ان في عيني الاحمر تعبيرا لم يره الصبي فيهما قبل الآن •

ــ اضربني يا عمر •

قال حمدوش ذلك وهو يقدم للصبي ظهره ، وعاد يردد بصوت خافت :

ــ اضربني ، اضربني •

فلما رأى ان عمر لا يتحرك ، مضى الى نوله وهو يقول :

ــ أنا سأمان •

ان الناس لا يعيشون الحياة التي يجب أن يعيشوها ، لكأن سناجا أسود قد وضع في قلوبهم •

* * *

— ١٤ —

ان صداقة ملتبسة مترصدة قد نشأت بين حمدوش وعمر • لقد حاول عمر ان يفهم الاحمر • ولكن محاولاته سرعان مااخفقت، فان الاحمر قد أساء استقبالها • كان حمدوش يثور فجأة ، وتظهر عليه علائم الاهتياج • ذلك ما حدث في يوم الاحد التالي ، حين مر عمر بالمعمل متعطلا ، فوجده فيها ، فاذا بالاحمر يكيل له سيلا من التقريع ، قال له :

ــ أنت تهتم بأمري آملا ان تدلني على طريق الخير ، او ان تكتشف منه شيئا في نفسي • هذا منك اسراف في طيبة القلب • ولكنك تضيع وقتك سدى ، صدقني •

وكان في لهجة هذه الكلمات ما جعل عمر ينظر اليه دهشا • قال له :

ــ ما يحملك على هذا الظن ؟

فأجابه حمدوش مستاء :

ــ ما هو بالظن ، هو الواقع أراه فيسوؤني ، هذا كل شيء••

قال حمدوش هذه الكلمات « هذا كل شيء » بصوت قاس أدرك فيه عمر عداوة مبيتة ••• فلم يقل الصبي شيئا • وما عساه يقول ؟

وظل حمدوش يصب عليه غضبه • فتركه عمر بعد لحظة ، تركه يحضن سخطه في الكهف وحيدا • وفيما كان يخرج سمعه يقول هذه الكلمات :

— امض ، فلست خيرا من غيرك •

وبعد الظهر ، تحاشى عمر ان يمر بالمعمل مرة اخرى ، وآثر أن يتجول في الشوارع • المدينة متجهمة رغم ان الجو دافىء • ان أول اوراق الاشجار تخرج رؤوسها من البراعم خجلى شاحبة •

ففيما هو في ركن احد الشوارع اذا هو يجد نفسه فجأة أمام ذلك الرجل الذي كان في تلك اللحظة لا يريد ان يلقاه • كان حمدوش مقبلا وهو خافض رأسه ، يدوس غبار الارض بقدميه في ضجر واشمئزاز • فلما لمح عمر ، توقف عن السير فورا ، ومال برأسه الى جانب ، وشزر فمه ، وتفرس في الصبي وهو مغمض عينه اليمنى نصف اغماض :

— الى أين أنت ذاهب هكذا ؟

— لا أدري • وأنت ؟ قد أذهب أنا الى عكاشة في المطعم ، ولكن •••

— دعك من « ولكن » هذه • سأذهب اليه معك • هناك ما أحب أن أقصه عليه •

كان عمر لا يضمر عداوة لحمدوش ، وانما كانت تسوؤه نزواته العنيفة • ان هذا الشيطان الاحمر الذي يحنق كل واحد

من الناس ، ويهين كل واحد من الناس ، كان يبدو عليه أن نفسه تنوء بحمل ثقيل لا يرى •

أذعن الصبي ومشى دون ان يقول كلمة ، وكذلك فعل حمدوش سائرا سير عمر •

فكان يتعمد في أثناء الطريق ان يدوس على أكوام من الصوالة أو على برك من الماء ناقعة ، كما كان يزعج النساء اللواتي يمررن قربه بكلمات ملتبسة • فلما وصلا الى باب المطعم رفع عمر عينيه ونظر اليه • فدفع حمدوش الباب الاخضر ذا المربعات الصغيرة دفعة مستعجل ، واجتاز العتبة ، فما ان خطا خطوة حتى اصطدم بصاحب المطعم الذي كان يجتاز القاعة المعتمة في استرخاء ، وأخذ يشتم ، ودس في يده مع ذلك قطعة من النقد وامره في نزق قائلا :

ـ هيىء لنا شايا ، وارسل من يجيئنا بفطائر •••

وقد دخل عمر وراءه ، فلمح عكاشة جالسا على طرف مقعد في احد الاركان ، مسندا كتفه الى الجدار • لم يكن بالمطعم كله أحد غيره • وكان على المائدة امامه كأس من الشاي فرغ نصفها ، وعلبة زرقاء من سجائر باستوس •

فلما رآهما سحب من سيجارته نَفَسا طويلا ، ورد رأسه قليلا الى وراء ، ثم أخرج الدخان نافرا من منخريه • وبيده القابضة على السيجارة لوّح لهما باشارة مودة لا تكاد تُرى • فخلع حمدوش سترته ، ورماها على أحد المقاعد ، ثم جلس الى

المائدة التي يجلس عليها عكاشة ، دون ان يدعوه عكاشة الى الجلوس ، ورفع ذراعه فلطم بقبضة يده صدره عدة مرات وهو يقول :

ـ ها قد جئت اليك يا عكاشة . هذا أنا ، أنا نفسي . أأنا شقي ؟ هه .. انني لاعرف ذلك حق المعرفة . ما أنا الا أقذار تداس بالاقدام . ما الذي اسعى اليه في هذا العالم ؟ الى أين أنا ذاهب ؟ لقد فسد قلبي .

قال حمدوش ذلك ، وازداد وجهه شحوبا . كز عمر فكيه . ومضى حمدوش يطلق آهات مختنقة ثم صمت . ظل وجه عكاشة موصدا لا يدل على شيء . انه واضع كوعيه على المنضدة ، مسند ذقنه الى يديه الضخمتين . كان ينظر في عيني الاحمر ، وقد انفرجت شفتاه عن اسنانه المتلألئة بابتسامة مبهمة .

سأله حمدوش بصوت مضطرب :

ـ ما بك ؟

ـ لا شك أنك قارفت ذنبا من الذنوب حتى أصبحت على ما أنت عليه من حنق .

لم يجب الاحمر بشيء . ناداه عكاشة :

ـ حمدوش

فانتفض حمدوش ، واكتسى وجهه هيئة المحاصر . قال له عكاشة مدمدما :

ـ أنت طيب القلب يا حمدوش ، اعرف هذا .

فصاح حمدوش وهو زائغ البصر :

ـ طيب القلب !

ثم نهض كالمعتوه ، وأخذ يصيح بصوت عال :

ـ اسمعوا يا مخلوقات الله ... ان قلبي يحب كل ما هو خير ونبل !

قال ذلك وشخر عدة مرات . ثم لم يلبث ان همس يقول في تدفق بصوت جاف :

ـ ولكن انتظر ايها الاخ . انتظر ان تعرف ما فعلته اليوم !

فحدق اليه عمر يرى ما يلوح في وجهه من تصعر مضطرب . ولكن حمدوش تابع يقول :

ـ في هذا الصباح ، في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، ذهبت الى ماحي بوعنان أطالبه ببضعة قروش . فرأيت عند هذا الخنزير شريكه المفتش نفناف . فما ان أبصر بي نفناف حتى رفع سبابته الى أنفه وباعد عينيه، وتفضل ففتح فمه وقال :

ـ « أنتم جميعا ، هنالك ، سكيرون ولصوص وما لا يعرفه أحد الا الشيطان ... أفضل شيء هو ان يوضع قطيعكم هـذا الجربان في السجن . ان صديقي ـ وأشار بابهامه الى ماحي بوعنان ـ ان صديقي هذا الذي تراه يحتمل منكم ما لا يحتمل ، فهو رجل ذو فضل . ثم انك أنت ، عدا ذلك ، بهيمة من البهائم ..

« نعتني بهذا النعت اللطيف ، وأمسك بي من ياقة السترة وهزني هزا • ثم غضن جبينه • فأحسست عندئذ ان الامور سوف تجري على غير ما يرام •

« ــ قل لي ، ان بينكم رجلا تافها حقيرا اسمه عكاشة ••• عكاشة ابن مراح •• هه •• أليس كذلك ؟

« وفكر قليلا ثم نظر الي" على حين فجأة نظرة شزراء وهو يسأل :

« ــ ماذا يقول هذا الرجل ؟ تكلمْ • يقول « اننا لن نحصل على شيء ولن تتبدل احوالنا ما لم نقلب الامور عالياً سافلها • يجب أن نغير الوضع الذي نحن فيه ••• »

« ذلك ما يقوله هذا الرجل •

« ــ ماذا ؟

« ورشقني بنظرة كالسهم •

« ــ ان نغير الوضع الذي نحن فيه ••• ماذا ؟

« ــ آ ••• لا ادري ••• انه لم يقل هذا الكلام •

كان عكاشة مغمضا عينيه لا يتحرك • وسيجارته ملتصقة بشفتيه لا تتقد • غير انه لم يلبث ان مصها فخرج من ذلك صفير خفيف • ارتعش عمر • ثم نفث عكاشة الدخان ، فاختفى وجهه الكبير ذو اللحية وراء هذه السحابة •

— ١٥ —

عكاشة صامت ، وحمدوش يحدق اليه في نهم • ثم اذا بحمدوش يضرب المائدة بقبضة يده المشدودة ضربة قوية اوجعته ، فينتفض على المائدة كل شيء : القدح والسجائر • ان عمر يرقب المشهد مشدوها • وفجأة استبدت به رغبة لا سبيل الى مقاومتها في أن يضحك ، وفي ان يضربه أيضا ، وفي ان يصيح به « كفى » ، لكنه كان في الوقت نفسه يخشى ان يفتح فاه • نظر الى صاحب المطعم الذي كان يغفو على كرسي وراء البسطة وقد مال رأسه على كتفه ، فبدا له كل شيء اكثر سقما •

وتابع حمدوش يقول بصوت أبح أبيض :

ــ وسألني نفناف مستعلما أيضا

« ــ والآخرون ؟

« ــ الآخرون ؟ (نظر حمدوش الى ما حوله خلسة بطرف عينه ، وخفض صوته) • الآخرون ؟ لا شيء » هكذا قلت له •

« ــ والسجين القديم ؟ ان بينكم رجلا كان في الماضي سجينا محكوما عليه بالاشغال الشاقة ، اذا لم يخطيء ظني • هو أيضا ••

« ــ هو أيضا ماذا ؟

« ــ يحرك لسانه •

« ــ أهذا كل شيء ؟

« ــ نعم هو كل شيء •

« ــ قال ذلك وأشهر اصبعه فغرزها في صدري ، ثم أضاف :

« ــ حذار يا أحمر •

« فخفضت رأسي » •

قال الاحمر هــذه الكلمات وهو يتكىء بيديه على المائــدة الوسخة اللزجة منحنيا ، وينهض نصف نهوض • كان يميل الى أمام كمن يستجمع قواه ليثب ، ثم قال ينفخ في وجه عكــاشة بصو تلاهث :

ــ هل فهمت الآن ؟

فاذا ببريق يشتعل في عيني عكاشة على حين فجأة ، ثم ينطفىء بسرعة كما اشتعل بسرعة • قال عكاشة وهو يهز رأسه ويقطب حاجبيه ، وقد لاح في وجهه العنــاد :

ــ ليس لهذا كبير شأن •

فوثب حمدوش على قدميه كأن نابضا يدفعه الى فوق ، وأراد أن يعترض • ولكن عكاشة وضع يديه على المائدة هو الآخر ، قبل ان يقول حمدوش كلمة واحدة ، واكد يقول له بلهجة واثقة :

ــ ان لك قلبا طيبا يا حمدوش ، انك تحرق دماءك حرقا •••

ـ لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ لمـاذا ؟

وهز الاحمر رأسه في حزن شديد ، حتى خيل الى عمر أنه سينفجر باكيا منتحبا .

أجابه عكاشة ببطء :

ـ لتعلم هذه الحقيقة .

فهدأ حمدوش فجأة ، وتمتم يقول بصوت خافت ، وقد لاح في وجهه الوجوم :

ـ ليتني أمضي أتابع مصيري في غير هذا المكان . يجب عليّ أن أذهب .. يا لسوء طالعي .

وتبللت نظرته التي يحجبها نوع من دخان احمر . وأخـذ يحدث نفسه كأنما هو نسي وجود عكاشة وعمر .

ولكنه لم يلبث ان استيقظ من ذهوله ، فقال عندئذ فيمـا يشبه الانين :

ـ لا ، مستحيل .

* * *

— ١٦ —

دخل الى المطعم رجل يرتدي ثياب العمـل الزرقاء وينتعل حذاءين باليين ، وهو يحمل بيديه سبحة من الفطائر عقدت بجريدة نخل ، فأفاق صاحب المطعم من خَدَره ، ونهض فتناول ابريقا كان ينقع فيه الشاي ، واتجه الى الرجل فأخذ من يديه الفطائر بطرف سبابته ، ومضى يضع الابريق والفطائر على المائدة امام الاصدقاء الثلاثة ، بينما كان الرجل الدخيل يعود ادراجه دون ان ينبس بكلمة .

صاح حمدوش يقول :

ـ عظيم .

ورفع الابريق في حماسة ، فصب منه دفقة عارمة في كأس عمر أولا ثم في كأس عكاشة ، وملأ بعد ذلك كأسه . ولم ينتظر لحظة واحدة ، بل حمل الى فمه فطيرة من الفطائر الساخنة فبلعها لقمة واحدة ، والحق بها كأس الشاي المحرقة التي صبها لنفسه .

قال يتمتم وهو منتفخ الفم :

ـ أنا مسرور أيها الاخوان .

وغمز بعينه . لقد كان فرحا حقا .

ـ آه ... أنا مسرور . انني لا أعرف ما الذي أحسه في أعماق قلبي .

قال ذلك وهو يلطم صدره في مكان القلب ، بقبضته المشدودة ثم مسح شفتيه وعاد يقول بلهجة أهدأ :

ـ حاولا أن تفهماني .

فأمّن عكاشة على كلامه بحركة من رأسه . كان عكاشة يأكل هو أيضا .

صاح حمدوش يقول بلهجة الظفر :

ـ ها ... هل رأيت ؟ هو اذن صحيح ما قلته . ان في نفسي شيئا من كل شيء ، لو علمت ... ولست ادري اين اضع قدمي . النتيجة : لا اصلح لشيء . عبثا طوفت في كل اتجاه : لا شيء . لا الاخلاق تجدي ولا الحض على الخير ... لا شيء من ذلك كله ينفع . لست أتورع عن شيء ، لست اتورع عن بيع العالم كله ببصلة ، كما يقال ... حتى ديني لا أتورع عن بيعه ببصلة . يالها من تعاسة . انني أشبه بالدوارة التي تدل على اتجاه الريح ادور ثم أدور ، في جميع الاتجاهات .

كان حمدوش يتكلم من غير حذلقة ولا ادلال . لم يعرف عمر كيف يفكر . ان هذا كله يهز نفسه هزا قويا . انه مهموم حيران .

وكان عكاشة يسحب من سيجارته أنفاسا طويلة ، وقد أغمض جفنيه نصف اغماض ، ثم لا ينفث الدخان الا بعد مدة ، فاذا نفثه

انتشر على شكل حلزون الى غير نهاية • وكان هذا الضباب الحاد يلفهم جميعا • وكان جفناه يرتعشان في بعض اللحظات ، فيطبقان• وكانت غضون قاسية تخدد جبينه •

واتنصب فجأة يقاطع الاحمر بقوله في خشونة :

ــ كفى حديثا في هذه الامور ! هذا الكلام كله قد سبق ان أضجرتنا بترديده •

فرفع حمدوش كتفيه الى أذنيه ، كمن صُب على رأسه قادوس ماء بارد •

وقال عكاشة مقرّعا ، وقد ظهر في وجهه الاستياء :

ــ اننا نمشي حفاة ، وأسمالنا لا تكاد تخفي ما بنا من بؤس ، وليس في بطوننا ولا في رؤوسنا الا فتات وأوضار •

فأخذ حمدوش يحك نقرته وهو ينظر اليه في دهشة • تمتم يقول :

ــ لست أخالفك في الرأي •

ومد يده الى علبة سجائر الباستوس ، رغم أنه ليس من عادته أن يدخن ، فسل منها سيجارة وأشعلها من العقب الصغير الذي كان عكاشة يقبض عليه بين السبابة والابهام • يسحب من السيجارة نفسا ثم نفث الدخان كله على الفور ، وعاد ينشق نفسا آخر • قال بلهجة الاهتمام والاعجاب :

ــ ما أكثر ما تدخن !

ـ أدخن ما كان معي سجائر ، حتى اذا نفدت توقفت عن التدخين ...

فلما سمع الاحمر هذا الجواب انفجر يضحك ضحكا قويا ، وهو يقرع بقدميه الارض ، ويهز رأسه ، وينثني نصفين . قال :

ـ هذا اسمه كلام حقا .

ثم لم يجدا بعد ذلك ما يقولانه من كلام . ان حمدوش جالس على مقعده وهو في حالة عصبية . واضح ان هناك فكرة تشغل باله . فتارة يقرب رأسه من عكاشة فيتفرس فيه ويركز عليه انتباهه كله ، وتارة يشيح بوجهه . والظلام يكاد يخيم في المطعم .

أخذت الاشياء تغيم . قال حمدوش وهو ينهض بوثبة :

ـ يجب ان أذهب الى « هناك » .

ففهم عمر ما يعنيه بقوله « هناك » . ان كلمة « هناك » هذه تعني زازا التي أودعها الاحمر قلبه .

وأضاف حمدوش شارحا ، دون ان يسأله أحد شيئا :

ـ يجب أن أسهر عليها . ليس لها في هذا العالم غيري . وستظل ، عندي ، الوحيدة ، الاولى ...

قال ذلك وهرع يخرج من المطعم . وبقي عمر وحده مع عكاشة .

— ١٧ —

وبعد قليل خرجا من المطعم هما أيضا . وفيما كان يطوفان في المدينة على غيرهدف ، صامتين ، يستنشقان اواخر انسام النهار ، قال عكاشة على حين فجأة .

ـ عمر ، ما قولك في أننا مسؤولان عن هذه الحياة البائسة التي يعيشها اخوتنا ؟

وضحك تلك الضحكة العذبة ، الخجلى قليلا ، المعهودة فيه مع أنها لا تكاد تشبهه . واستدرك يقول :

ـ طبعا ليس ذنبنا ان الناس يحيون هذه الحياة الشقية . ومع ذلك أحس دائما ان لنا في ذلك يدا . لن يستطيع احد ان ينتزع هذه الفكرة من رأسي .

وصمت مرة أخرى ، ثم أضاف، بعد بضع خطوات :

ـ أظن اننا نكون مذنبين قليلا اذا لم نفعل شيئا من اجل ان نوضح للناس ما يجب عليهم ان يعملوه حتى يكفلوا لانفسهم حياة أفضل .

قال عكاشة هذه الكلمات بنبرة توشك ان تكون نبرة مذلة . وأضاف :

ـ لك أنت أقول هذا الكلام ! ..

فابتسم عمر . كان الليل قد هبط . وهذا ضباب أسود رقيق يتموج في الهواء ، ويتخلل المنازل والمارة والاشياء ، التي تبتعد عنك كلما اقتربت منها . التفت عكاشة الى عمر وابتسم مثله . ثم قال :

ـ كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئا .

ودس الحائك يده في احدى جيوبه ينبشها ، ثم دسها في جيب أخرى ، ثم سأل صاحبه بمرارة لا تتفق ولهجة المرح التي كانت تشيع في كلماته :

ـ أليس معك سيجارة تعطينيها ، أليس معك أي شيء ادخنه ، أي شيء ولو كان سما ؟

كان عمر قد اخذ يجرب التدخين منذ مدة ، خفيةً ، فهو يشتري سيجارتين أو ثلاثا من صغار البائعين ، وفي جيب سترته الآن واحدة . مد عمر يده الى الجيب الصغيرة ، فسل منها السيجارة في رفق ، فتناولها عكاشة ، فأشعلها بعود ثقاب ، وجعل يدخن . ان الظلام يغيب وجهه الآن .

قال عمر سائلا في تعجب :

ـ كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا ؟

فحرك عكاشة يده باشارة في الهواء . وقال :

ـ كأنها لا تتوقع شيئا ...

ثم أضاف بلهجة فيها الحلم كله والاخوة كلها :

ـ ... شيئا عظيما .

ـ لا بد أن هناك أسبابا تحملك على هذا الاعتقاد .. لا بد أن هناك أسبابا تدفعك الى هذا الكلام ...

فقاطعه الحائك يقول :

ـ أسباب ؟ أتظن ان هذا ما يزال له وجود ؟

فأجابه عمر :

ـ ولماذا تعتقد انه لم يعد له وجود ؟

فالتمعت عينا عكاشة في الظلام ، ونبع من وجهه الاسود صوت أجش قليلا ، ساخر قليلا ، يقول :

ـ طوفت في البلاد ، وتحدثت مع كثير من الناس .

ـ في أي شيء يفكرون ؟

ـ ذلك ما سألتهم عنه . قلت لهم : ماذا تعملون ؟ فيم تنفقون أيامكم ؟ فاذا كل ما أجابوني به لا يمكن ان يسمى شرحا ولا بداية شرح .

واستأنف عكاشة بعد لحظة :

ـ اليومَ انما ينبغي أن يسير المرء في الطرقات محاولا ان يعرف ما يدور في أذهانهم .

قال ذلك وهو يرقص رأس سيجارته المتوقد امام عينيه .

وأضاف متنهدا :

ـ انها للذة أن يدخن المرء سيجارة حقيقية : تدخنها فاذا براحة مقدسة تغزو قلبك ، وفي وسعك أن تهزها ، وهي كذلك سلاح ، هي نار تشق الفضاء . آه .. ليت لجميع الناس سلاحا حقيقيا .

قال عمر وقد تقلص حلقه قليلا :

ـ لم السلاح ؟

فأجابه الحائك بقوله :

ـ آ ... انها للذة دائما ان يملك المرء سلاحا حقيقيا .

وسحب من سيجارته أنفاسا حانقة ، ثم توقف يشرح بصوت خافت :

ـ يخطر ببالي أحيانا أنه يكفي أن يملك جميع الناس سلاحا .

انهما يسيران الآن في الظلام دون ان ينطقا بحرف . والمدينة من حولهما تسترخي ، متهيئة لراحة الليل الكبرى . وقع الاقدام يقرع الارض في كل مكان ، وما ينفك يتجدد من شارع الى شارع ، في فتور الليل الساجي . وأطل الشارع الذي كانا يسيران فيه على مقهى ينيره سيل من الضوء ، فهو يبدو من بعيد كأنه يفيض شمسا .

قال عكاشة :

ـ عم مساء يا أخيّ .

ـ عمت مساء .

— ١٨ —

كان عمر سائرا يتقرقف من البرد في هذا الفجر القارس ، وقد وضع يديه في جيبيه . ان الريح تثير تحت خطواته غبارا أشهب ، وتجرف مزقا بالية من جرائد ملطخة ، ونثارات خشب وأوراق أشجار . فلما وصل الى حيث يرى المعمل من بعيد احتار وارتبك . ذلك أنه رأى ماحي بوعنان واقفا يحرس باب المعمل وقد برزت كرشه الضخمة . أحس الصبي بانزعاج لم يستطع كبحه، ولعن الرجل . ان عليه ان يمر تحت أنف المعلم ، فكيف السبيل الى تحاشيه ؟ غير أن ماحي بوعنان كان يبدو عليه أنه ينتظره ، لا يحفل بهبات الريح الصقيعية التي تصفع جلبابه المصنوع من وبر الجمل .

فلما صار امامه سمع أنفاسه التي تخرج من صدره في عناء . كان المعلم يتنفس تنفسا ثقيلا .

قال يتذمر بصوت جاف :

ـ ها أنت ذا ... الآن تصل ؟ ... ما ينبغي ان يزعج المرء نفسه .

وتنحنح يكشط حلقه المتسخ ، ففاحت في زفيره رائحة الخمر .

ـ ولا سيما اذا لم يكن هناك عمل .. احم ... هيا .

وكانت نظرته المترنحة متشبثة بعمر .

ـ يسرك أنت أن لا يكون هناك عمل .

وتمتم يقول بين أسنانه :

ـ كسلان ، تنبال .

انه لا يقوم بأية حركة يحتمي بها من الريح . وكان في وسط جبينه أثر لطمة يسودها البرد .

ـ اعترف بالحقيقة ، أليس يسرك أن لا يكون هناك عمل ؟

ثم ربت في لطف على كرشه التي اخذت تتراقص تحت الجلباب وهو ما يزال منشبا نظراته في عمر .

ـ اني أشد منك خبثا ومكرا . فحذار .

كان صوت ماحي بوعنان يعلو ويصفر ، ووجه الصبي يستقبل أنفاسه النتنة . وعبثا تهب الريح على الرجل شديدة عاتية ، فان قرصاتها الباردة لا تحرك فيه ساكنا .

وظل يهز كرشه الضخمة بيديه في غير حياء .

أخذ الصبي يفقد هدوءه شيئا بعد شيء . انه يشعر بالخجل والعار أمام هذا الرجل السكران . وادخل عنقه في كتفيه .

ـ أنا ذاهب الى العمل يا معلم .

قال ذلك وهم أن يغور في فم الكهف المظلم ، لولا انه سمع المعلم يصيح به فجأة :

ـ قف . أنت الآن مستعجل ، هه . لا ، ياسعادة البك .. ارجع . سوف تتناقش معي قليلا . ألسنا صديقين ودودين ؟ أليس بيننا صداقة كبيرة ؟

فعاد عمر ادراجه ، وجعّد بوعنان وجهه .

كانت أصوات الحائكين الحانقة تتصاعد من الكهف ، وقد علاها جميعا ذلك الصوت المقاتل الملتهب المعاند ، صوت حمدوش.

قال عمر للمعلم :

ـ سوف يصيبك برد يا معلم .

وفي هذه اللحظة ترنح ماحي بوعنان ، وكاد يهوي على الارض لكنه استطاع أن يسترد توازنه فانتصب امام الطفل متكبرا ، ومد عنقه في جهد . قال متنهدا :

ـ أهذا هو الكلام الذي يسعفك به عقلك ؟

ـ ذلك ... أنك اذا أصبت ببرد مرضت .

ـ ما هذا الهراء ؟

ـ أقول انك اذا ...

فمط المعلم شفتيه ، وأرجح رأسه على صدره .

ـ لماذا تقول لي هذا ؟

كان ينظر الى عمر من خلال حاجبيه ، باتتباه مفرط هو ذلك

الانتباه المعهود فيمن أخذ منه السكر كل مأخذ ، تابع يقول :

ــ لماذا تقول لي هذا ، أنا معلمك ؟

خاف الصبي .

ــ هه ؟ لماذا ؟ لماذا تقول لي هذا أنا معلمك ؟ لماذا ؟ أأنت مشفق علي ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يؤكد لي أنك لا تخفي شيئا آخر ؟ من ذا الذي يؤكد لي أنك لا تتمنى لي الموت مثلا ؟ هــه ؟

قال ذلك وهز رأسه .

ــ وهبك مشفقا علي ؟ يا للشقاء ! أمثلك يشفق على مثلي ؟..

وأطلق شتيمة كبيرة ، ثم القى على ما حوله نظرة غائمة .

ــ آه ...

وانقضت عدة ثوان تساءل عمر خلالها عما عسى ان يحدث .

وفجأة قال بوعنان مقرعا :

ــ ماذا يصل أسبابك بأسبابي حتى تشفق علي وترثي لحالي ؟

وأنشب يده في عنق الصبي .

ــ اذهب ... واعلم أنه ليس على هذه الارض الا أوغاد .. ليس في وسع طرح من نوعك ان يبرهن لي على خلاف ذلك ؟ أأنت تشفق ، أنت ؟ ما أنت الا وغــد .

وردد يجأر قائلا :

ـ وغـد .

وأخذ المطر ينزل رذاذا رقيقا . وهدأت الريح قليلا ، فهي تنوح الآن نواحا ضعيفا . وماحي بوعنان ساكن لا يتحرك كأنه كتلة من حجارة . ان بريقا أخضر قد اشتعل في عينيه الدهنيتين . وانتفض فجأة يقول :

ـ اذهب ... ما وقوفك هنـا ؟

فاندفع عمر يغور في المدخل المظلم ، ويهبط درجات السلم الاثنتي عشرة دون ان يراها . ومضى الى مكبه متعثرا .

اختفى المعلم . انه لم يجيء الى الورشة في مثل هذه الساعة المبكرة من الفجر ، يدفعه ما يدفع السكير الى مثل ذلك ، الا وهو خارج من ليلة قصف .

* * *

— ١٩ —

ـ في الليلة الماضية سكروا سكرة كبرى • وفي الليلة التي قبلها أيضا • وانتهت السكرتان كلتاهما بالضرب • واستمر الضرب في هذه الليلة أيضا •• ثلاث ليال متتالية •• ياللانسان البغيض ! لم يكن قد أفاق من سكره تماما حين كان هنا منذ قليل •

ونظر مصطفى رزاق الى الحائكين واحدا بعد واحد ، وفتح فمه فتثاءب ثم تنهد يقول حاسدا :

ـ يا له من رجل ، معلمنا هذا ، هـه ؟

قال شول :

ـ نعم • هل تجدون في المدينة كلها رجلا مثله ؟ أليس على حق ؟ ان ماله هو ملكه يفعل به ما يشاء ، ولا يدعه يعفن في خزانة من حديد •

وكان شول يرتدي صديرة يلبسها فوق القميص ، وبنطلونا يتموج بلا حزام • ان فكرة تبديد المال في القصف واللهو قد أثارت حاسته • قال :

ـ يكسبه الآن وينفقه بعد لحظة • المال يسيل من بين اصابعه • انه لجدير حقا باسم الماجن • لو عملنا ليل نهار من

أجل ان نهيىء له من الدراهم ما لم ير أحد منا مثله في حياته كلها ، لعرف كيف يبدده على الفور . انه لرجل .

قال قوطي الامين منتقدا بقوة :

ـ يعرف كيف ينفق في الاثم ، أما بعد ذلك ، فياويلنا ! .. انه يماطل في الدفع اسبوعا بعد اسبوع ، ثم لا ينقدنا قسطا من أجورنا الا في أيام الاعياد . لكنه يأمر بأن نحيك له أربعين بساطا في اليوم ، أي ما يساوي مائة وستين كيلو غراما من الصوف .

ـ انه ليسيل لعابكم أيها الصالحون الاتقياء . حاولوا ان تفعلوا مثله . ولماذا لا تجرؤون على ان تقولوا له شيئا حين يكون هنا ؟

قال شول ذلك ، وهو يرشق معارضه بنظرات متقدة حانقة .

ـ انه يعرف كيف يلهو ، أما أنتم ، فمن ذا الذي يستطيع ان يقول لماذا تعيشون ؟

لم يجب قوطي الامين لا بنعم ولا بلا ، وانما التقى حاجباه عند منبت الانف في ثنيتين ، ثم مال على نوله ، واتجه بانتباهه كله الى خيط اللحمة يدسه في المكوك .

وارتسمت على الوجه النحيل ، وجه شول ، ابتسامة ظفر خبيث . قال عكاشة :

ـ من يسمعك يحسبك فخورا ... كأنك انت من يدور عليه الكلام .

ـ كيف ؟ أليس هناك ما يدعو الى الفخر ؟ أما أنا فأؤكد أن هناك ما يدعو الى الفخر كل الفخر . هذا رجل لم يكن يملك قرشا واحدا. أصحيح أم لا ؟ كان عاملا يعمل بأجر ، مثليومثلك ، كان شخصا لا يساوي بصقة . ثم ماذا أصبح ؟ أصبح كبار تجار المدينة اصدقاءه ، وأصبح وجهاء الفرنسيين يحترمونه ، وأصبح أحدُ مفتشي الشرطة رفيقا من رفاقه . حاول أن تمكر به يضعك في السجن في مثل لمح البصر . وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، مثلي ومثلك .

كان شول يقول هذا الكلام في حماسة ما تنفك تزداد ، وصراخ ما ينفك يقوى .

ـ أتقول انه سرق ، وربما قتل ؟ انه ليتفق كثيرا أن يقال عن فلان او فلان من الناس ، من قبيل الحسد ، انه سرق او قتل أو دس سما ، مع ان الامر لا يعدو أن يكون قد نجح . نحن أناس لا نحب أن يواتي الحظ أحدا . حتى اخوتنا في الشقاء لا يطيقون أن يروا احدا منهم يخرج من حالة البؤس التي هو فيها .

وأمسك فجأة عن الكلام ، والقى نظرات حاقدة سقطت على الصبية المكبين ، فانفجر يصيح بهم حانقا :

ـ كان ينبغي أن تفرغوا منذ ساعة يا اولاد النحس .

قال عكاشة :

ـ هو المال الحرام يذهب كما أتى .

فضحك عثمان الاحمر ضحكا قويا ، ثم نادى يقول في الصمت الشـــامل :

ـ الموت . آ ... الموت . كل شيء صائر اليه ...

فانقبض صدر عمر .

وفي آخر الكهف ، أخذ يغني صوت مرهق مكدود ، يكاد يكون صوت امرأة :

لم يبق لي في حيـــاتي
سعـــادة ارتجيهـــا

وانهمك العمال في عملهم بحماسة آلية .

ولّت حياتي ضيـــاعا ....
يا موت هيـــا الي

وتنهد أحد الحائكين ينادي :

ـ يارب .

* * *

— ٢٠ —

كانا يسيران في عبق الربيع • عكاشة يتكلم ، وخطاه تبطؤ في بعض الاحيان • وكأنما لاحظ فجأة ما يحيط به ، فاذا هو يتوقف عن السير توقفا تاما ، فيرفع أنفه ، ويلبث عدة لحظات ينشق ويتنسم الهواء الجديد ، في نشوة غريبة عذبة محرقة •

قال :

ـ الشعب ملكوت الله ••• الشعب روح العالم • ما من احد علم الشعب ، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره ، وينشرها بكلتا يديه في سخاء •••

ونظر عكاشة الى عمر بطرف عينه ، كأنما هو يفضي اليه بسر ، قال :

ـ منذ مدة طويلة ذهبت أطوف في الطرقات ، أيها الصغير •• فرأيت الشعب ، وعرفت الشعب • وأصبحت منذ ذلك الحين لا أستطيع أن أعتاد الحياة الساكنة • ظننت في أول الامر انني سأستطيع ذلك ، وتجلدت وكابرت وجربت صورا شتى من الحياة، فلم يجدني ذلك كله •

قال ذلك وصوته يزداد بحة ، ثم أضاف :

ـ وأنا اليوم مضطر الى الاعتراف بأنني أصبحت لا أطيق الحياة الساكنة • لا ادري ما الذي يحدث لي ، لا أدري هل يجب علي أن أبقى هنا ••• لا أدري ••

وكان هبوط الليل يقترب • وكانت تجري في السماء غمامات ما تزال مذهبة • وكانت الحركة التي تستبد بالناس عند الغسق قائمة قاعدة •

ـ كل شيء في المدينة بارد سيىء • البائع في المدينة ملك • ويل لمن يريد في المدينة أن يثور على جنس التجار • ان المدينة هي العالم الذي يعيش بغير أمل •

كان عمر ينظر اليه خلسة وقد انقبض قلبه • فمال عكاشة عليه وهمس في جوف أذنه :

ـ عاشت الحرية أيها السيد • ينبغي ان نمضي باحثين عنها في الطرق • الناس هنالك يكرمون اخوتهم •

تفرس الصبي في وجهه تفرسا قويا •

ـ لك أنت أقول هذا الكلام ، أيها الطفل •

وظلا يتجولان الى أن التبس الظلام ، فافترقا : ذهب عكاشة الى مقهاه المألوف ، وعاد عمر الى بيته •

* * *

— ٢١ —

ـ دع الشعب • فيم تتكلم دائما عن الشعب ؟ دع الشعب يتألم •

قال حمدوش هذه الكلمات وهو يمط شفتيه كطفل حاقد •

ـ دعه في فاقته • أهو يتألم ؟ ولكن ما الذي تستطيع آن تفعله له ؟

ولم يجب عكاشة ، فاستأنف الاحمر يقول :

ـ دع الشعب ، وليعش كل واحد على نحو ما يريد •• على نحو ما يحب • الرجل الذي سيخرجنا من الحال التي نحن فيها ، لم يخلق بعـد •

ثم أغمض جفنيه نصف اغماض ، وراح يهتز ذات اليمين وذات الشمال كما يفعل مرتلو القرآن • ان عمر لم يشعر في يوم من الايـام بأنه قريب من هذا الشخص المحير ، كما يشعر بذلك فى هذه اللحظة • كلماته المرة ، نبرته التي تدل على العذاب ، كل هـذا ••••

قال عكاشة :

ـ جميع الناس يتكلمون كما تتكلم •

ـ كما أتكلم ؟ من الذي يتكلم كما أتكلم ؟

ـ جمع لا يحصى عدده .

وألح الاحمر يسأل :

ـ ولكن من ؟ من ؟

ـ أناس حمقى .

فجحظت عينا حمدوش ، وعوى كما يعوي ابن آوى ، وانتصب واقفا بوثبة واحدة . ان ذؤابته الحمراء المتقاتلة تلتمع كأنها مشعل . وكان لا بد من اربع سواعد قوية ، هي سواعد حمزة وحسين ، من أجل ان يمكن الامساك بهذا الانسان الذي ركبته الجن ، ومن أجل رده الى القعود حيث كان .

وأراد حمزة أن يصلح بين المتخاصمين ، فقال :

ـ لا أحد بيننا شرير اذا ما أخذ على حدة (كان صوته الضخم يجري بالكلام كالغناء) . واذا اتفق ان رأينا أحدنا شريرا ، فانما يكون ذلك على غير ارادة منه ، اذ لا يستطيع أحد ان يسيطر على مصيره . الانسان الذي لا سلطة له على القوى التي تسحقه ، لا سلطان له على نفسه . ولكن اذا جاء اليوم الذي يحطم فيه كل شيء ، تبدل الامر ...

كان الحائكون يسمعون هذا الكلام ، فلا يؤيدون ولا يشجبون . وقد ساق حمزة أقواله ، بذلك الصوت الاسيان ، بتلك النبرة المشفقة التي لا يعرفها أحد في غيره .

وتابع يقول :

ــ على أن في الدنيا قلة من الناس جبلت على الشر .. فهؤلاء ... سيلقون جزاءهم عاجلا أو آجلا .

تقلص وجه عكاشة ، وكز فكيه . فلما رأى حمزة هذا التعبير الذي ظهر في وجه زميله ، ابتسم من خلال كشش لحيته الشهباء ابتسامة تدل على كثير من سلامة القلب .

وكان العمال الآخرون يأكلون وهم يتابعون الكلام بوجوه موصدة لا سبيل الى النفاذ اليها . كانوا كأنهم يستنكرون في قرارة نفوسهم هذا الاضطراب كله . لقد امتلأت رؤوسهم بأحلام غامضة ، فهم يتأملون هؤلاء المثرثرين دون أن يظهر فيهم أي اهتمام بهذه الاحاديث الطويلة ، كما لا يظهر فيهم أنهم يرون هذه الجدران المحيطة بهم ، ولا هذه الانوال المتعبة ، ولا ذلك الظل الثقيل الباعث على الغثيان الذي يثقل على أكتافهم .

قال الاحمر معقبا ، وما يزال شعاع من جنون يسكن نظرته :

ــ نحن لا نصنع لا خيرا ولا شرا ، وانما نحن قابعون نستنقع بين الاثنين في غير جدوى .

وقال حسين طرف ، الملقب بالقنفذ ، قال يسأل عكاشة :

ــ قل لي اذا أراد أحد ان يسافر الى فرنسا سيرا على قدميه ، هل يستطيع ذلك ؟

فأجاب المسؤول :

ـ لا .. فالذي أعرفه هو ان عليه أن يعبر البحر ، والبحر ، كما تعلم ، لا يمكن عبوره سيرا على الاقـدام .

فلم يضف حسين طرف شيئا ، وانما غاص في الافكار التي أيقظها في نفسه جواب عكاشة . انه يحاول أن يعرف هل أجابه رفيقه صادقا أم هو كذب عليه وسخر منه . ان هذا الرجل الاعجر يشبه منظره منظر شجرة تالفة . كل ما فيه أسود : الزغب والجلد والنظرة . أما شعر رأسه الذي يحتل جزءا من جبينه العنيد ، فانه منتصب انتصاب أشواك مهددة .

وكان حمدوش الذي ما يزال حانقا كل الحنق من مشاجرته مع عكاشة يعذب الارض بطرف قطعة من الخشب في غضب شديد .

قال يدمـدم :

ـ لا أحد يعلم شيئا ... وأنت تنزل نفسك منزلة عراف لا يجهل شاردة ولا واردة .

فأجابه عكاشة وهو يشير برأسه الى عمر :

ـ اسأل الصبي يجبك . لقد تعلم ، هو ، في المدرسة .

فقال عمر :

ـ نعم ، يجب عبور البحر .

فقال حمدوش ثائرا :

ـ لشد ما تضجرني صحبتكم !

الجزء الثالث

— ١ —

ـ لقد تجبرتم حتى أصبحتم لا تؤمنون بالله ، ولكن كيف يمكن ان يثق المرء بكم بعد الذي سمعه من أقاويلكم وبعد الذي رآه من سلوككم ؟ على أنكم ما ينبغي أن تؤاخذوا ، فلست أظن أنكم تتحدثون حديث الجد أبدا .

قال قوطي الامين هذه الكلمات وتأوه ، ثم زم شفتيه زما قويـا ، وأخذ يفكر ، ثم اغمض جفنيه .

ـ لست أدري ما هذه الفكرة المجنونة التي تستبد بالناس ، انهم يسرفون في الحديث والاستماع ، ويبحثون ثم يبحثون ثم ما ينفكون يوغلون في البحث في هذا الظلام الذي يلفهم . ولا شك أن هذا هو ما ينشأ عنه الاثم .

ان نبرة من عذاب قد تسللت الى صوته ، حتى ليحس المرء أنه مستعد لان يغفر للناس رغم أنه ما كان له أن يفعل ذلك منشرح الصدر .

واستأنف يقول بصوت خافت :

ـ ماذا يريدون ؟

فنظر اليه حمزة خلسة وهو يتقدم بحاجبيه الى أمـام :

ـ يريدون أن يطعموا من جوع ، وان يعاملوا خيرا مما تعامل البهـائم .

فنهض قوطي الامين ، وابتعد عن الجميع دون ان ينبس بكلمة، ومضى يقعد بعيدا في ركن من الاركان .

لكنه قال من مكانه سائلا :

ـ لماذا لا تكفون عن الشكوى ما دمتم ، أنتم أنفسكم ، لا تعلمون شيئا من أجل ان تتبدل حياتكم ، وما دمتم لا تحترمون الانسان الذي فيكم ؟ ان الشكوى يمكن ان تكون منكم أيضا .

قال حمزة :

ـ صحيح .

ـ اذن لماذا لا تعمل شيئا ؟

ـ اذا كان الامر أمري ، فأنا أيها الاخ مستعد لان أفعل كل ما يطلب الي فعله .

قال حمزة ذلك وباعد ذراعيه وهو يضيف :

ـ ولكن ما عساي أصنع وحدي ؟

ـ المرء يحاول .

فهز حمزة رأسه ليقول لا ، ثم أضاف يشرح بلهجة متأنية :

ـ لا أحد منا قادر وحـده على أن يبدل الواقع ...

ـ بل قل لا أحد قادر على أن يعارض قدره .

هكذا هتف يقول عباس صباغ الذي كان جلس الى نوله ، وقد أظلم وجهه .

وحاول حمزة أن يناقش ، ولكن محاولاته ذهبت سدى . كان واضحا ان الحائكين الآخرين لا يكاد يختلف تفكيرهم عن ذلك ، حتى لكأن تصور حياة أقل شقاء يؤذيهم مثلما تؤذيهم اهانة.

وحين جلس قوطي الامين الى نوله بعد لحظة قال بكلمات سريعة قصيرة وهو يحرك يديه :

ـ نصيبك لا بد أن تناله . افهم جيدا ما أعنيه : انت قد تكدح كالثور ، وقد تكون اذكى الناس وأمهرهم ولكنك لن تأخذ الا نصيبك . كن غشاشا او سراقا او مكارا ، فلن تنال الا نصيبك .

قال ذلك ومال على احدى ساقيه ثم مال على الاخرى ، وصمت. ان يدية الشعراوين تمسك بسراهما بخيط الصوف، وتمسك يمناهما بالمكوك . لم يدرك انه ناقض نفسه بنفسه . على أن ذلك أمر شائع في الكهف لا يهتم به أحد .

ـ فما هو السلوك الذي يجب أن نلتزمه في الحياة ؟ لقد قيل : « من تقدم الى الله عاريا كساه » . ونحن أناس لا نرتدي الا ثيابا مستعارة ، وكذلك جميع الناس ، يستوي في ذلك الظالم والعادل . نحن جميعا عراة على أبشع صورة من العري . كلنا عرضة للانظار بشكل مخيف .. والثياب الغريبة التي نظن أننا متدثرون بها لا وجود لها الا في خيالنا .

خفض العمال الآخرون انوفهم ، وكان واضحا أنهم قد تأثروا بهذا الكلام . كان قوطي الامين يتحدث على مهل بصوت قوي . وكان حمدوش وحده ينظر اليه في وقاحة . فلما لاحظ الحائك العجوز ذلك ، امسك عن الكلام ، فاذا بالاحمر يخرج من فمه صوتا ماجنـا .

ـ رجل بغير حيـاء .

قال الامين ذلك ولعنه ، ثم أضاف :

ـ حين ستوسد قبرك أيها الزنديق ...

فقاطعه حمدوش يقول وهو يغمز بعينه :

ـ لسوف نموت جميعا ، فلا حاجة حقا الى هذه الترهات كلها . ولكن يخيل الي أن ذهنك مشوش بها كثيرا ... أترك غير مرتاح الضمير ؟ ..

فزاغت نظرة الامين ، وقال :

ـ سيقتص لي الله منك أيها الشيطان .

ثم قال بلهجة غريبة ، هي لهجة من يأمر الآخرين ويبتهل اليهم في الوقت نفسه ، أن يصدقوه :

ـ الناس عازفون عن الحياة الصادقة الخالصة التي ترضي الله . ولكنك ان حضضتهم على أن يعيشوا على نحو آخر كنت تشوش نفوسهم . اني اؤكد ذلك .

فصاح حمدوش يقو ل:

ـ ببغـاء .

فاغبر وجه الامين ، وأظلمت عيناه القاسيتان الكابيتان . ولم يجب على الاهانة . وكان يهم ان يتابع حديثه ، فاذا بالاحمر يصرخ ، وكان يراقبه :

ـ انه مجنون ... مجنون تماما ... عليكم بالمجنون .

فقال قوطي الامين عندئذ بصوت أبيض .

ـ عقابك عنـد الله .

وكان عثمـان الملقب بالموت ، يذرع الممر المتوسط بخطى مختالة ، فاذا هو يدور في مكانه ، فيغير اتجاهه ، ويستأنف بخترته ، ثم يصعد درجات السلم في بطء ، حتى اذا صـار عند الباب ، نظر الى قاع المعمل ، ونادى يقول بصوت عريض :

ـ أنا الملك .

فالتفت جميع من بالمعمل اليه فرأوه مادا ذراعه يشير باصبعه الى الصبي الجديد ثم يقول :

ـ جزاؤه أن يضرب بالعصا على أسفل قدميـه مائة مرة دون توقف ..

فرشقه الصبي بنظرات حانقة . ورفع صقالي وجهه الابيض المبهم من فوق دولابه ، يصغي الى الحديث .

قال عثمان منذرا في عظمة :

ـ استعد ، فسوف تنال جزاءك .

حاول عمر ان ينظر الى مكان آخر حتى لا ينفجر مقهقها ، وقامت في المعمل عندئذ صيحات وشتائم وقهقهات ، واختلط الحابل بالنابل . ان جميع الحائكين قد تركوا عملهم ، فبعضهم ممسك بأضلاعه ، وبعض يئن .

قال عثمان وهو يصطنع هيئة القسوة :

ـ ماذا ؟ أين الغرابة ؟ ألست ملكا على نفسي ؟

فما سمع العمال ذلك ، حتى هبت في المعمل عاصفة من الضحك أعتى من الاولى .

وكان جلول حداد اول من استطاع أن يتكلم ، وهو يمسح دموعه :

ـ لقد أحسنت الكلام ... أنت أحكمنا جميعا .

قال عثمان :

ـ سكوت ... الموت وصل ...

فصاح به أحدهم :

ـ ألا انك لطير شؤم .

فأجابه عثمان بقوله :

ـ لن تعيش مدة طويلة .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم الى الكهف على حين فجأة • فسرعان ما خيم الصمت •

سأل ماحي بوعنان :

ـ ماذا هناك ؟ هل اقتتلتم ؟ لكأن في معملي وحوشا •

هبط عثمان درجات السلم في وقار ، دون ان ينبس بكلمة ، فرشقه المعلم بنظرة ساخرة وهو يقول :

ـ آه •

فلما رأى عثمان الملقب بالموت أن المعلم يخصه باتتباهه قال يسأل في رصانة :

ـ فماذا نعمل ؟

فأجابه ماحي بوعنان قائلا :

ـ نستدعي رجال الشرطة •

فدمدم صقالي يقول في ركنه المظلم :

ـ ياليت يارب •

واصطنع عثمان هيئة النادم التائب وعاد الى نوله •

وهدأ اهتياج الحائكين شيئا بعد شيء • وفيما كان المعمل يستأنف العمل ، استرد الجو ما يشيع فيه من حزن وتسليم • لا يألف المرء بمثل هذه السهولة ان يضحك •

— ٢ —

ذهب عمر الى المقهى يلحق بعكاشة ، على عادته في كل يوم من ايام الاحد • كانت الساعة في نحو العاشرة من الصباح • ان رفافا من السحاب تمتد فوق المدينة • واوراق الاشجار التي تنبجس من بينها البيوت العالية ، تلفها غلالة من أنسام شـــهباء شفافة ، تتجمل فيها المآذن وأشجار السرو • والشمس تظهر من حين الى حين ، فاذا بخار مضيء يحف بكل شيء من الاشياء على صورة هالة • انه نهار مرهف طيب •

الناس والعربات والبهائم تمضي في تيارات شتى • جلاليب خشنة تحاذي قمصان بقالين • باعة ذوو لحى مصففة يسيرون بخطوات صغيرة وهم يرجحون أذرعتهم • المقاهي طافحة الى الشارع •

وهذه هي المدينة الواطئة • ان جمهور الناس يجري هنا قاتما كالقطران • ودخل عمر المقهى ، فوجد عكاشة جالسا وحده في ركنه الاثير • قال له وهو يصل اليه مباغتةً :

ـــ الله اعلم فيم تفكر •

فمر عكاشة بيديه على وجهه في بطء •

واردف عمر يقول :

ـ منظرك اليوم غريب كل الغرابة . أتراك قد وقع لك شيء ؟

فرنا اليه عكاشة . ان في عينيه من الضجر ما ارتبك له عمر . وقال عكاشة معترفا :

ـ لقد استبد بي الامر في هـذا اليوم دفعة واحـدة .

وأسند رأسه الى يده :

ـ آن لي أن أذهب . لا أطيق بعد الآن بقـاء .

فخطر ببال عمر ان امورا كثيرة ستسهل يوم يسافر عكاشة . لقد اكتشف الصبي أن هذا الحائك لم يُخلق للتحدي والمشاجرة . وآلمه أن يرى هذه القوة مُذلةً مغلوبة على أمرها .

ـ أترانا بلغنا هذا المبلغ كله من غربة بعضنا عن بعض ؟

فلم يفهم عمر ما قاله عكاشة .

وردد عكاشة يسأل :

ـ ما رأيك ، هـه ؟

ـ ما تقوله صحيح .

ـ هل أقول في بعض الاحيان ما ليس بصحيح ؟

وأظلمت عينا عكاشة . كان عمر دهشا . وأضاف عكاشة يقول بصوت ران عليه الحزن :

ـ ليس الامر أمر تلفيقات .

ثم اردف يقول وقد أضاء وجهه في هذه اللحظة بابتسامـة طيبة :

ـ لا ، ما كان للناس ان يصيروا الى ما صاروا اليه لولا انهم أوذوا أذى كبيرا .

ثم مال على عمر ، وهمس يقول :

ـ لقد أهين شعبنا كثيرا ... وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل .

وخيم الصمت على دكان الشواء . وانقضت لحظة طويلة . ثم عاد عكاشة الى فكرته كما يعود المريض الى الجرح الذي يؤلمه.

ـ لم أعد أطيق البقـاء .

وتنهد ، ثم التفت نصف التفاتة الى عمر ، وعاد يؤكد مرة أخرى :

ـ لم أعد أطيق البقاء .

ورجع الى النقطة التي تركها من سلسلة تفكيره ، فأكمل يقول :

ـ لقد أصبح شعبنا شديد الاحساس ، شديد الاحساس بآلامه ، بالاهانات التي تحملها في الحاضر والماضي ... اصبح شديد الاحساس الى حد يصعب ادراكه .

شعر الفتى مرة اخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول ، وركود الاشياء .

ـ وأصبح شعبنا أيضا شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة . لا شك أن هذا كله كان موجودا في الماضي . ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفـق في أي يوم مضى . فما الذي سيخرج من ذلك ؟ أرجو ان يخرج منه خير ....

— ٣ —

قال الاحمر لعكاشة بلهجة كان يعتقد انها لا شك مفحمة :

ــ أراك تتحدث دائما عنا ، فهلا عرفت على الاقل ما قيمتنا ؟ هل تعلم ما الذي نقدر على فعله ، وما يمكن ان نقترفه من شرور ؟

قال ذلك وهو يلح على هذه الكلمات الاخيرة بنظرة مراوغة • فأجابه عكاشة :

ــ نحن كسائر بني البشر ، قيمتنا كقيمة غيرنا من الناس سواء بسواء •

ثم أضاف بعد لحظة من تفكير :

ــ لسنا شرا من غيرنا ، ولا خيرا من غيرنا ••• كل ما في الامر أننا أشقى من غيرنا قليلا •

ــ كذبت • ان شيطانا يختفي في نفس كل منا • يبدو علينا أننا كسائر الناس ، لكننا لسنا كسائر الناس • ونحن جميعا نرفض ان نسلم بذلك • انتا نتكلم ونعيش ونعمل خافضي الرؤوس ، ولكننا لا ننتظر لا سنوح الفرصة المواتية لنقارف ما نستطيع ان نقارفه من شر •

قال حمدوش ذلك وفي ارتعاش صوته حدة لا تبشر بخير ، وأضاف :

ـ اننا لا نتورع عن شيء ...

ـ في رأيك اذن انه ليس في بلادنا الا أناس خطرون ، اناس ينبغي أن يقيدوا بالسلاسل .

ـ أنا من هذا على يقين .

فضحك عكاشة ضحكة قصيرة . وقال :

ـ سيتبدل الامر .

ـ أنت وحفنة من امثالك الحالمين وحدكم تؤمنون بذلك . لا ، لا ، ما من احد ينطلي عليه كلامكم منذ أخذتم ترددونه .

وكان حمدوش لا يستطيع ان يستقر في مكانه ولا ان يكبح جماح عصبيته . قال :

ـ هلا تفضلت فذكرت لي كيف سيتبدل الحال ؟

ـ ما من احد يستطيع ان يتنبأ كيف ستجري الامور على وجه الدقـة .

فصمت حمدوش لحظة ، ثم صاح يقول على حين فجأة :

ـ لا ، لست اوافق .

قال هذا ومر بلسانه على شفتيه بسرعة ، ثم حرك يده في الهواء كأنما هو قد غص بكلمة .

ـ جميع الذين أراهم يبددون جهودهم ويرهقون انفسهم في الكلام الطيب ، لا يزيدون على ان يبصقوا في الهواء • انهم يخدعون أنفسهم ويخدعوننا • ولكن كلامهم لن يحرك اصغر حصاة من حصى الطريق ، فان زعموا غير ذلك فهم كاذبون •

وطرف بعينه ساخرا •

ـ ما نحن في حاجة اليه ، يا أخي ، انما هو نوع آخر من الرجال •

ودلك صدره في بطء وارتياح •

ـ أنظر اليهم في الشارع ، اخوتك هؤلاء • ما الذي تنتظره من هذا الجيش من الاشباح الساغبة ؟

نزع عكاشة الوتد الذي يُبقي من تحت النسيج على تباعد الحاشيتين ، وانتصب وهو يقول :

ـ لا بد للمرء من كثير من قوة النفس حتى يقبل هذه الحياة على أنها خير ، وحتى ينسى هذه الآلام التي تجثم على صدورنا •

فاعترض حمدوش صائحا :

ـ أنت انسان يحيا على حلم •

وحين صاح بذلك كان كمن يريد أن يخرج محدثه من سبات عميق • فابتسم عكاشة • حتى اذا ادار اسطوانة النول مع مساعده حسين طرف وأعاد غرس الوتد في مكانه ، أشعل عود ثقاب وقرب

شعلته الصغيرة المتموجة من عقب السيجارة الذي كان قابضا عليه بشفتيه ، وهو يحني رأسه الى جانب . أجاب :

ـ نحن في حاجة الى هذا الحلم .

ـ لسنا في حاجة اليه ابدا . وانما نحن في حاجة الى الحقيقة ، الى الحقيقة عارية كل العري .

وقبض حمدوش يديه ، ورفع ذراعيه الى السماء وأخذ يحركهما في الهواء ، ثم ضرب نوله وهو يقول معترضا بصوت مختنق :

ـ هذا كله ليس له في رأيي أية قيمة .

وعندئذ أخذ شول يغني بصوت عال :

الليل جاء فأين نقضي الليل ؟

الليل جاء فأين نقضي الليل ؟

* * *

— ٤ —

أصابعه تبحث عن سيجارة فهي تنبش العلبة مرتعشة محمومة فتمزقها • ودمدم يقول :

ــ انتهى ، انتهى ، قررت ، قررت • سأذهب • سأمضي الى بعيد ، الى بعيد ، حيث لا يعرف أحد من أنا •

فهتف عمر يقول :

ــ لماذا ؟ ماذا تأمل أن تجد ؟

ــ ماذا ••• ماذا آمل أن أجد ؟

وأخذ عكاشة يفكر :

ــ ألا تفهم ها •• ها •• قل : أتريد ان تجيء معي ، أم أنت لا تريد ؟

ــ لا أريد •

لم يجب عكاشة بشيء • لم يدهشه هذا الرفض • كان يتوقعه ولعله كان يتمناه •

ثم استأنف يقول بلهجة تشبه ان تكون لهجة دعــاء :

ــ لم أعد اطيق البقــاء • كفاني ما لقيت !

ان عياء لا سبيل الى وصفه كان يترقرق في كلماته هذه • وصفق بيديه وامر بقدحين آخرين من الشاي •

ـ لنشرب معا مرة أخرى •

وابتسم • وابتسم عمر أيضا •

قال عكاشة :

ـ هناك شيء لا أفهمه ، هو ان مفارقتك ستؤلمني •

ونظر الى الصبي في انتبـاه •

ـ حقا •• ستؤلمني مفارقتك •

وجاء الساقي ، فوضع كأسين من الشاي الساخن ، ورفع القدحين الخاليين • فما ان أدار ظهره ، حتى تابع عكاشة يقول :

ـ الحياة هنا رمل ، يملأ المرء يديه فلا يقبض على شيء •

ورشف رشفة من الشاي ، ثم رشف رشفة أخرى ، وهو خافض رأسه ، لكنه يرقب عمر من فوق حافة القدح •

ـ ربما كان هذا السفر آخر حظ لي •

وأضاف بصوت أخفت :

ـ وقد لا يحقق لي هذا السفر السعادة ، غير انني سأشعر اذا سافرت بأنني أقل تناقضا مع نفسي •

وابتسم ابتسامة صامتة ، متقلصة بعض التقلص •

ـ نفس حزينة ، حزينة وقلقة ، قلقة قلقا رهيبا .

وعاد الصمت يخيم بين الرفيقين .

وابتسم عكاشة بعد لحظة ابتسامة وانية ، وقال :

ـ سوف أنتهي الى احتقار جميع من حولي اذا أنا لم ...

وحرك ذراعه باشارة في الهواء كأنما هو يطرد اشباحا أمامه.

* * *

كانت أمسية الصيف تنشر جوا ورديا أشهب . وقد اشتعلت واجهات المخازن . غير ان الليل ما يزال بعيدا . ان الشوارع تزدحم بكسل كبير .

ظل عمر يطوف على غير هـدى ، فارغ الرأس . انه ليس بالحزين ، ولكنه ممزق القلب . كان يسير في حذر . لقد ودع عكاشة منذ قليل .

ووصل من طوافه الى السور الذي يطل على السهل . أخذ يتأمل الحقول والطرق والاخاديد ، أخذ يتأمل هذا المنظر الذي يحيط به الظلام . كانت الارض تغور في العتمة في رفق وهدوء . تنسم تلك الرائحة اللانهائية القوية ، رائحة الريف . ثم ما لبث أن اصبح المنظر الذي أمامه عالما أجرد ساكنا : لقد هبط الليل . ان طمأنينة آتية من الاعماق تملأ الآن قلب عمر .

وعاد الى الجمهور الذي تعج به الشوارع • انه يحس بحاجة الى ان يحيط به وان يحمله تيارُ هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم كثيرا ، ولكن وجودهم ينعشه •

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالاكاليل على طول الارصفة ، فهي تضيء سلالا تنساب فيها ألوان قويـة مشهية •

المدينة من الصيف في سكر • غير ان السطوع القوي والدفء المتلألىء اللذين كانا في النهـار ، قد اعقبتهما في الليل أنسام طريـة •

وكانت نداءات باعة « الدندرمة » أبرز كل ما في ذلك الغسق من حركة ونشاط • واخذت أولى النجوم تظهر في السماء • خيل الى عمر ان هذه الوجوه التي تلفها الظلال تعكس ما بنفسه من حماسة • ان هؤلاء الناس يشبهونه • انهم ، هم أيضا ، ينتظرون يقينا لا يتصوره خيالهم بعد ان قضوا أياما وأياما بغير أمل •

* * *

— ٥ —

ـ يجب تبسيط الامور ، ينبغي لجميع الفروق بين البشر ان تزول ، والذين يعارضون هذا يجب سحقهم • نعم ، لا فروق •

قال حمدوش ذلك بصوت يقرقع كالسوط • فدمدم عباس صباغ • ان عباس صباغ لا يريد حتما أن يخوض في مناقشة مع انسان مهتاج كحمدوش • ومع ذلك قال يدافع عن نفسه كأنه هو المتهم :

ـ طيب ••• هذا رأيي أنا أيضا •

ـ كذبت • أنت تعبد كل قديم • ولستَ أولَ من أراه كذلك • انكم جميعا سواء •

قال عباس :

ـ اذن لا تحاول أنت أيضا ، أن تجعل لنفسك ميزة •

ـ كل من يريد أن يجعل لنفسه ميزة يجب أن يباد •

تحرك عباس تحرُّك من ضاق ذرعا ، ولكنه لم يجب •

وكان الحائكون يعملون في همة ونشاط ، فلا هم يسلمون ولا هم يعارضون • وكان بعضهم يتوقفون عن العمل في بعض اللحظات ، فيسخرون بالمتبجح ثم يستأنفون عملهم •

قال عباس أخيرا :

ـ ان الله هو الذي أمرنا أن نعيش على هذا النحو ...

فحدجه حمدوش بنظرة غريبة . ثم قال له :

ـ هب الله هو الذي أمر بهذا . أفأنتم تفعلون كل ما أمر به الله ؟

ومرة أخرى أصمّ عباس صباغ أذنيه . وكان عمر يصغي الى هذا الكلام كله مشدوها . كان يخيل اليه ان هذا الذي يتكلم ليس حمدوش .

وأخيرا قال شول سائلا :

ـ وفيم تلقي علينا هذا الهذر كله ؟

ـ من اجل ان تفهموا ؟

ـ من أجل ان نفهم ؟

وهزّ شول كتفيه .

ـ كان البشر دائما يصطرعون ويلتهم بعضهم بعضا .

قال ذلك ثم أضاف :

ـ فانما مرد الشر كله الى حماقتهم . افهم هذا أخيرا .

صمت حمدوش .

وحين آن وقت الخروج من الورشة ، سأله عمر :

ـ لماذا كنت حادا تلك الحدة كلها ؟

فمط حمدوش شفتيه ، ولم يجبه • ثم قال :

ـ ياله من سجن ! هيا بنا نخرج من هذا السجن •

وخرجا من الكهف ، وذهبا كلاهما الى مقهى من مقاهي « بليق » ، رغم أن أحدا منهما لم يكن ينوي ذلك ، فلما جلسا مديرين وجهيهما الى الشارع الصاخب الاغبر ، ظلا صامتين لا يقولان شيئا • هما الآن في ساعة متأخرة من المساء • ظلال البيوت تزداد طولا على أرض الشارع • ان شيئا مرهقا يجثم على صدر هذه الامسية من اماسي آب • وكان حمدوش يتفرس في كل ما يجري ، بشراهة ، وقد صالب ذراعيه على صدره •

قال بلهجة غير مألوفة فيه :

ـ ان المرء ليخجل من نفسه في بعض الاحيان •

فالتفت اليه عمر على مهل • فتابع حمدوش يقول :

ـ الصبر شيء لا أستطيع أن أفهمه • انني آخذ في الارتعاش والصراخ لاتفه سبب من الاسباب •

كان حمدوش يتكلم محملق العينين ، ثم اذا به يضحك فجأة •

ـ هل تريد أن أفضي اليك بأمر ؟ انني أشعر أحيانا كأنني وحيد في هذا العالم ، وكأنه لا وجود لاحد من الاحياء غيري ، فأصبح عندئذ انسانا لا يطاق ، انني أضيق ذرعا بنفسي • لعل هذا يرجع الى مرض بي •

قال ذلك ونظر الى رفيقه من جانب .

ثم تابع يقول بلهجة هي بين المرح والجد ، لا تدري ألأن هيئة عمر قد طمأنته أم لان مزاجه في ذلك المساء كان يدفعه الى أن يفضي بذات نفسه أكثر مما عُهد فيه :

ـ على كل حال ، هناك شيء ليس على ما يرام ، لا ادري أين . لماذا أنت صامت ؟

ـ افكر فيما تقول .

وكان عمر يفكر حقا في اقوال الاحمر ، فانصبت عليه نظرات حمدوش قلقة قلقا مبهما . قال له عمر :

ـ اني لا اصدقك .

ـ لا تصدقني ؟ أنت على صواب .

الحق أن عمر لا يستطيع ان يقول ما الذي كان يشعر به أثناء اصغائه الى حمدوش وهو يفضي اليه بذات نفسه . لقد كان يحس بضباب كثيف يجلل ذهنه .

ان طيوف المارة في الشارع تسود وتستحيل شيئا بعد شيء الى ظلال تتحرك . فقد هبط الليل .

فلما أفرغ عمر وحمدوش كأسيهما ، نهضا ، ومضا يمشيان في المدينة .

كان الاحمر قد طلب الى عمر ان يوصله الى بابه ، فوافق عمر على ذلك .

ـ طيب يا حمدوش .. هبك قتلت واحدا ، بل هبك قتلت عددا .. فما تصنع بعد ؟

ـ ما ينبغي أن نفكر الآن فيما سيحدث بعد . كيف لا تفهم هذا ؟ ذلك أمر نفكر فيه بعد . أما الآن فيجب أن نعمل .

وانتفخت شفتا الاحمر واتسع منخراه . ثم انفجر صوته على حين فجأة حارا خافتا يقول :

ـ يجب أن نكون رهيبين ، لا بمظهرنا فحسب ، بل بطبعنا أيضا . يجب ان نكون رهيبين ويستوي بعد ذلك ان نَغْلِبَ أو أن نُغْلَبَ .

قال ذلك وقد شحب وجهه ، ولكنه أردف يقول وقد هدأ قليلا :

ـ يجب أن تنهي هذا الطراز من الحياة التي عشناها الى الآن.

كان عمر لا يستطيع ان يحول نظره عن رفيقه ، ولا ان يقف الانفعال الذي استبد به . وتناول عمر يد الحائك ، فهزها وهو يقول له :

ـ أنت أيضا انسان يعيش على حلم .

ولكن حمدوش كان قد بلغ من الاضطراب انه لم يسمع كلماته . وما لبث عمر ان تركه .

وفيما هو يسير في الظلام ، كان يترامى اليه صوت الاحمر صلفا وساخرا سخرا غريبا في آن واحد :

ـ يجب أن نفعل شيئا ، ليس يجدينا الا أن نفعل شيئا .

كانت الشوارع تخلو شيئا بعد شيء ، وكان قلب عمر ، كهذه الشوارع ، يتسع للخوف والقلق أكثر فأكثر . وقال لنفسه فجأة : ان حريته ملك له ، وان عليه أن يتصرف فيها على النحو الذي تمليه عليه ارادته .

* * *

— ٦ —

بعد أن سافر عكاشة ، اختفى حمزة أيضا اختفاء لم يعرف سره أحد • وقد انقطع حمدوش عن المجيء الى الورشة منذ يومين ، فقرر عمر ، في صباح هذا الاحد ، أن يذهب الى بيته ليراه • ان قلقا لا يُفهم قد قام في نفس عمر • ان عمر لا يعرف لم استبد به هذا القلق • انه لا يستطيع ان يقول لماذا سبب له حمدوش هذا الهم المباغت •

لم يكن وضع الاحمر وضعا بسيطا ، ولا كانت أقواله كذلك • انه يجذب وينفر ويثير ويجرح • غير أنه كان ، بحكم السن ، أقرب هؤلاء الحائكين الى قلب عمر • وبعد ان سافر عكاشة ، ازداد عمر اقترابا منه حتى لقد أصبح له عليه نوع من التأثير يشبه السحر • ان قوة جاذبية لا تعليل لها كانت تحمل عمر على السعي الى صحبته • لا شك أن في حمدوش شيئا متوحشا لم يروض ولم يستأنس •

الصيف يسطع على المدينة ، والهواء أنسام خفيفة ، والسماء السكرى تسكب دفئا باهرا • ذهب عمر الى تلك الاحياء الدنيا التي يُضغط فيها المرء بغير انقطاع ويُصدَم وتحملُه أمواج المارة • ان في كل ركن من الاركان متسولين يئنون ، فهم تارة

فرادى وتارة جماعات ، وتارة ضائعون في زحمة الناس ، ولكنك تعرفهم دائمـا من مشيتهم المتلمسة • من ذا الذي كان يسمع ضراعاتهم ؟ ان صوتهم يغور في الجلبة فما يصل الى الاسماع • غير أنهم يصرون على الصراخ في غير يأس •

وفيما كان عمر عند تقاطع شارعين لمح شرطيا وامرأة يحيـط بهما عدد من الاشخاص •

كان الشرطي يقول للمرأة ، بصوت يحاول أن يجعله مقنعا :

ـ خير لك أن تعودي الى بيتك • عودي الى بيتك •

وكانت المرأة ترتعش ، ويزداد كلامها حدة شيئا بعد شيء •

ـ انهم جميعا سواء حين يكون الامر امرَ اقتياد رجالنا الى السجن • لقد اعتقل زوجي هو وواحد آخر ••• والآن يطلب اليَّ أن أعود الى بيتي •

صرخ الشرطي يقول :

ـ عودي الى بيتك • وأنتم ، هيا افسحوا الطريق •

فهدأت المرأة روعها ولكنها صمدت ولم تذهب• وظلت تتكلم، سافرة عن وجهها أمام جميع الرجال ، وهي تتحدث الى الجمهور الذي كان يتجمع من تلقاء نفسه استجابة لنداء الشقاء •

وأزاحت المرأة حايكها ، وأخرجت يدها تشير بها الى الشرطي وتقول :

ـ هذا الرجل يزعم أنه واحد منا ، يزعم أنه أخ من اخوتنا ، فيا أيها الناس الطيبون هل يستطيع أحد ممن يلبسون هذا اللباس العسكري أن يظل يزعم لنفسه أنه واحد منا ، انه أخ من اخوتنا ؟

فتقدم الشرطي وعاد يقول بصوت رجل من رجال السلطة :

ـ ابتعدوا .. انكم تسدون الطريق العـام .

فتفرق الناس ، وأخلوا المكان ، فما ان عاد الشرطي الى وراء حتى أطبق السد البشري مرة اخرى .

فلما رأى الشرطي ذلك رجع اليهم وقد جحظت عيناه ، وأخذ يحرك يديه قائـلا :

ـ انقضت ساعة وأنا احاول ان اردكم الى الصواب . أما من سبيل الى ردعكم ؟

فلم يتحرك أحد من مكانه . وكان الحشد يضم من النساء المحجبات والاطفال مثلما يضم من الرجال . ان واحدا من هؤلاء الرجال ، وهو قروي فيما تدل عليه هيئته ، كان مستندا الى عصا ، يراقب في هدوء ، وهو على هذا الوضع ، ذهاب الشرطي وايابه ، فتقدم منه الشرطي وقال :

ـ ماذا تعمل هنـا ؟

فنظر الرجل الى الآخرين وقد ظهرت في وجهه علائم الدهشة ، ولكنه لم يتحرك من مكانه . فعاد الشرطي يسأله :

ـ ماذا تعمل هنا ؟ لعلك تشتهي أن ارمي بك في السجن ؟

ـ ارم بي في السجن ان شئت . أنا أنظر .

فصمت الشرطي .

كان القروي ، ذو الوجه المعبر والهيئة الحازمة ، قد وقف مباعدا قدميه ، وما تزال يداه وراء ظهره .

سأله الشرطي :

ـ تريد أن ارمي بك في السجن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

وكانت المرأة تتكلم عن شقائها الى المحتشدين بلهجة الحديث العادي المألوف .

فعاد الشرطي يسأل :

ـ ما لكم تسمرتم هنا ؟ لماذا لا تنصرفون ؟

قال الرجل الذي كان يبدو عليه أنه قروي :

ـ نحن جميعا اخوة .

فقال الشرطي يوافقه :

ـ صحيح .

فهتف صوت بعيد يقول :

ـ هه ! انه يتذكر أصله !

فقال الشرطي متذمرا :

ـ يوشك من يسمع كلامك أن يظن أننا أبالسة .

فأجابه الرجل :

ـ أنت شرطي .

فقال الشرطي :

ـ طبعا أنا شرطي .

وأضاف وهو يتجه بكلامه الى الجمهور :

ـ لا بد لي من القيام بواجبي .

فتدخل أحدهم يقول :

ـ دعني أذكر لك هذا الامر ذكرَ أخ لاخ : ان أخا طيبا مثلك هو الذي شق رأسي ذات يوم . لماذا ؟ لان الوقت المحدد للباعة المتجولين كان قد انقضى ولم أنصرف بعد مع خضري .

ـ ماذا بك حتى تقول هذا الكلام ؟ انني لاحسن صنعا اذا هويت عليك بيدي . هيا اذهبوا . يجب أن لا يعرقل المرور .

وكان الجميع قد ازداد كثافة . والناس ما يزالون في امكنتهم ينظرون الى المرأة وينصتون لحديثها .

قال الشرطي :

ـ وبعد ؟ ما بكم جميعا ، هـه ؟

فاذا بصمت كصمت الموت يخيم ، بعد هذه الكلمات ، على

الحشد المظلم الذي لا صدع فيه • وعندئذ سأل الشرطي بصوت خافت :

ـ ماذا تريدون ؟ هذا مورد رزقي ، ان لي ثمانية أطفال •• فهل تلومونني ؟

فقال القروي بعد بضع لحظات :

ـ دعوه • اذهبوا في سلام •

فابتعد بعضهم يخلون السبيل للآخرين • وظهرت في وجه الشرطي ابتسامة شكر •

* * *

— ٧ —

بعد الشوارع المزدحمة والجمهور الصاخب ، يظهر الصمت هنا على حين فجأة • ياللهدوء المباغت في هذه الازقة الضيقة المتعرجة ! الشمس تلهو على البيوت الشائبة الهرمة التي يرتفع بعضها فوق بعض ، والهواء الشكس يلهو تحت كشش العشب التي تزين بريشها ظاهر الجدران • وليس للجدران من منفذ يطل على الخارج غير المداخل العميقة التي يدلف اليها الداخل على درجة او درجتين في أكثر الاحيان • والابواب ذات المقارع ثقيلة ، فلولا انها تظل فاغرة في الليل والنهار على السواء لما أمكن الوصول الى داخل البيت •

وأن حياة السكان (الاحاديث ، وأصوات النساء ، وأيدي الهاون التي تدوي كالاجراس) انما تظل على عالم آخر •

تلبث عمر عند بناية قديمة ضخمة ، فاجتاز مدخلها الكبير ، ثم دفع بابا صغيرا معلقا في زاوية على مسافة ثلاث درجات من الارض ، وأخذ يصعد السلم الحلزوني الضيق ، المظلم جدا ، الذي أفضى به الى مسكن صديقه • فلما صار عند العتبة ، صاح يسأل ؟

ـ هل هنا أحد ؟

فجاء الجواب :

ـ هـــه • هذا أنت ؟ ادخل يا سيدي ادخل !

كان الصوت هو صوت حمدوش المازح • فما ان وضع الفتى قدمه في الغرفة حتى بهرته الشمس التي كانت تدخل اليها من نافذتين • كان حمدوش مستلقيا على فراش مسطح كالرغيف ، وهو مرتد ثيابه غير انه عاري القدمين ، فلما رأى صديقه نهض وفي عينيه ابتسامة ، وأخذ يدس قدميه في نعليه •

الغرفة العارية كل العري مبيضة الجدران • وفوق فراش القش يتدلى معطف مهترىء لا لون له ، معلق بمسمار • وفي ركن من الغرفة ينام صندوق خشبي على جنبه• كاشفا عن سخان صغير يشتعل بالكحول ، وابريق متبعج لغلي الشاي ، وزجاجة ، وفنجان وصحن •• وعلى الكرسي ترقد باقة طرية من نبات النعنـــاع في قدح ماء • وليس في الغرفة شيء آخر •

كان قد نهض حمدوش • قال :

ـ جيد هذا المسكن •

ثم أخذ يتمطى ، وأضاف بصوت فيه تثاؤب :

ـ هو جيد في الصيف خاصة • أما في الشتاء ••• برررر•••

وطفق يهيىء الشاي • كان عمر ، الذي لم يفتح فمه بكلمة ، قد اقترب من احدى النافذتين ، واخذ ينظر الى الخارج : ان المرء

لا يرى الا السطوح المجاورة ، فليس البيت عاليا • أما السماء ، فما كان اروع صفاءها في ذلك الصباح !

غاب حمدوش وعاد بعد دقائق يحمل بيده خبزا فرنسيا وضعه على الكرسي ، ثم مضى يرمي ماء الكأس من النافذة ، وكان ابريق الشاي قد أخذ يغلي ، فصب في الكأس شيئا من السائل الاحمر وذاقه ، ثم أعاده الى الابريق ، وأخذ يحرك الابريق تحريكا قويا وهو يشتم ويسب :

ـ كفى سفالة • كفى رذالة •••

وعاد يصب الشاي في الكأس حتى ملأها ، فقدم الكأس الى عمر ، أما لنفسه فقد ملأ الفنجان الذي كان في الصندوق •

ـ هل الشاي طيب ؟

وكانت شفتا عمر على الكأس ، فهز رأسه يؤكد انه طيب ، فسر حمدوش بذلك ، وابتسم ابتسامة مشرقة •

ـ لو قلت غير ذلك لسكبت الابريق كله على رأسك •

قال ذلك وقدم للصبي قطعة من الخبز ، فرفض الصبي أن يأخذها رغم الحاح الاحمر •

ـ ألست جائعا ؟

ـ لا •

واستمرا يشربان الشاي • ان حمدوش يأكل مع الشـــاي

خبزا • والاثنان صامتان لا يقولان شيئا ، ولكن كلا منهما يرقب ما عسى أن يقول صاحبه •

رشف حمدوش رشفة صاخبة من الشاي وراء لقمة الخبز التي دسها في فمه بشراهة جائع ، ثم دمدم يقول :

ــ انك لست بالفتى التافه ، ولكن خيالك جامح في بعض الاحيــان •

ــ كيف ؟

ــ لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ، ولكنني أعرفه • انك تسلك سلوك من يحس ان الناس ضائعون وأنه لم يخلق على هذه الارض الا ليشاركهم آلامهم •

قال حمدوش ذلك ونظر الى جانب كأنه يفكر في شيء ما • ثم أضاف :

ــ كذلك كان عكاشة •••

ــ هل سمعته يقول شيئا عني ؟

فأجاب حمدوش بغير تردد :

ــ كان يعتقد أنك انسان عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره • وأنك ما تزال تتألم أكثر من غيرك لانك أرهف احساسا من غيرك •

ثم قال وقد علت نبرته فجــأة :

ــ وعكاشة أيضا كان يتألم للآخرين اكثر مما يسألونه أن يتألم لهم • كان يحب أن يواسي ، والمواسون خادعون •

واعترف يقول بصراحته الخشنة :

ـ وطبعا لم يمكن تصديقه .

وعاد يمضغ الخبز ويشرب الشاي .

ـ لم يكن يعاشر النساء . كان طاهرا . وكان يحب النظام . كان طيبا ... هذا اسراف .

ومن العجيب ان حمدوش كان يتحاشى أثناء كلامه ان ينظر الى عمر ، غير أنه ظل مع ذلك يراقبه بطرف عينه. استغرب عمر أنه ظل طوال المدة الماضية لا يلاحظ ان للاحمر طبيعة ثانية يخفيها ، وأحس ان حديثه اليه على انفراد يكشف له الآن عن هذه الطبيعة.

ونسي مع ذلك ان يسأله عن سبب غيابه خلال الايام الاخيرة .

ولكن حمدوش تابع يقول :

ـ ليس الامر أمر شفقة على الناس . ان الناس لا يسألونك أن ترثي لحالهم وان تشفق عليهم . أنت تريد لهم الخير ، ولكنهم الى العدالة انما هم ظامئون .

صعق عمر . وقرب حمدوش وجهه من الفتى ، وقال مؤكدا في اقتنـاع :

ـ ميل سيء . ثم تصور النتيجة التي يجنونها من هذا . ان هذا لا يرفع عنهم ذرة من البؤس الذي هم فيه . والا لكان الامر سهلا مفرطا في السهولة .

ـ أنت تكره الناس .

ـ بل أريد لهم ان يتعلموا كيف لا ينشدون الا سعادة واحدة : الحرية .

ـ هناك السعادة بالحياة ... بالحياة ... بمجرد الحياة .

ـ كلام .

ـ ولكن جميع الناس يرغبون في هذه السعادة .

ـ كل هذا لا روح فيه . وانما ينبغي للانسان ان يتعلم الشعور بالحرية من جديد . أما الظمأ الى الحياة فانه يعود فينشأ بعد ذلك .

ـ ما عليك الا أن تفتح عينيك وترى ...

فانفجر حمدوش ضاحكا .

ثم قال وهو يضرب الجدار بقبضة يده :

ـ العالم قاس . وجميع الذين يتطلعون الى أفكار رفيعة كريمة سيتحطمون على صخرته . وما ينبغي أن نعجب اذا نحن رأينا الارهاق يدب فينا من قبل ان نبدأ النضال .

نفذت أقوال الاحمر في قلب عمر نفاذ السكين .

وأضاف الاحمر يقول :

ـ ولا تنس بعد ذلك أن اخوتنا اوتوا القدرة على اعتياد كل شيء ، وان مبائسهم نفسها اصبحت لا تؤثر في نفوسهم .

ـ لا ادري ... ولكنني أرى ان الاصح من ذلك ان يقال

انهم خجلون منها ، فهم لا يتحدثون عنها • انهم يخفون آلامهم •

ـ لا ••• هذا غير صحيح • ان قلوبهم ميتة •

ـ يجب ايقاظ قلوبهم من سباتها •

ـ ما يجب انما هو : الكره ، القسوة •

ـ هناك أناس يساعـدون غيرهم على أن يصبحوا خيرا مما كانوا •

ـ لعلك ستصير من هؤلاء •

ـ ربما صرت منهم • لم لا ؟

ومرة أخرى أخذ حمدوش يضحك ، فجمد عمر •

ـ اذا أردت أن تجر الناس ، كان عليك ان لا تدع لقلبك ان يرق لاناتهم • انك اذا اتفق أن اوليتهم صداقتك ، لم يخشوك •

ـ أنت تثبط العزيمة •

ـ الامر كذلك ، فلا أنا ولا أنت لنا فيه حيلة • منذ وجدت في هذا العالم اسمع اناسا يدعون الى الرحمة وحب البشر •••• وما زلت الى الآن اسمعهم ، هؤلاء الواعظين ••• ولكنني لا أرى ان البشر قد تحسنت احوالهم •

كان عمر يصغي صامتا • لقد بدأ منذ الآن ييأس من حمدوش•

ولما خرج من عنده ، احس بقلبه يفيض ضعفا • وقد سأله ، وهو يودعه ، عن سبب انقطاعه عن العمل ، فأجابه الاحمر بقوله :

ـ لم أشأ ان أذهب •

— ٨ —

ما ان اخذ المعمل يتحرك في ذلك الصباح حتى استأنف حمدوش انتقاداته المرة • قال :

ــ لا يصدق المرء مدى ما تتصفون به من جبن ، حتى ليتساءل أهو أمام أفراد يرغبون حقا في شيء أم هو أمام أفراد لا يعنيهم حتى مصيرهم •

وأخذ يكيل الهجـاء لرفاقه ، ويضطرب ، ويشتم • كانت الالفاظ تتشبث بحلقه وأسنانه ولسانه ، ولا تريد ان تتركها • قال شول مازحا :

ــ أَرِنا أولا ما أنت قادر على أن تفعله ، ثم ننظر في الامر •

قال عمر لنفسه : « اذا أراد المرء ان يجتذب الى صفه الآخرين، كان عليه أن لا يغرقهم بوابل من اللوم والتقريع • انهم يفهمون أن حياتهم حياة سيئة ، فما هم بالعميان ، وانهم ليلومون أنفسهم بما فيه الكفاية ، وانما ينبغي أن يبرهن لهم على صداقته وأن يقدم لهم شرحا مقبولا » •

وتذكر سراج ، وتذكر عمالا آخرين غير سراج • انه يدرك الآن ان لغتهم يمكن ان تبدو لغة اجنبية في نظر حمدوش •

اما الاحمر فهو يفحم زملاءه ، ذلك كل ما كان يستطيعه ، ذلك كل ما كان يجيده • لم يحاول مرة واحدة ان يشد ازرهم وان ينعشهم بكلمات سمحة كريمة • فكلما حاول اقناعهم ازدادوا برما بأقواله • وكان يمكن ان يصلوا من ذلك الى اعتباره ألد أعدائهم لولا أنهم كانوا يرون فيه « قرقوزا » وهب القدرة على الكلام •

ولم تزدد الحال الا سوءا يوما بعد يوم • أصبح حمدوش يسترسل في أحاديث قاتمة مفككة ، ويتكلم بألفاظ موجزة • انه ما ينى يحل أزرار سترته ثم يعقدها ، ويهتز ويضطرب كمن يريد ان يتخلص من حمل ثقيل • وان في نظرته أثناء ذلك من الالم والزيغ ما يولد في نفس عمر افجع التنبؤات •

قال ذات مرة وفي صوته سخر :

ـ معذرة ••• ليست المسألة ان نشفق على الشعب أو لانشفق عليه • اني لانظر الى الناس فأرى على وجه عام أنه ليس هناك شعب • ليس هناك شعب حقيقي • ليس هناك شعب حقيقي • ليس هناك شعب حين يجمع بعضهم كتلة من الناس ثم يصيح بها قائلا : « أنتم الشعب ، الشعب الذي يصنع كل شيء ، ويعلم كل شيء » • هذا الشعب الذي يجتمع عندئذ ليس الا هراء •

ثم تابع يقول حانقا رهيبا :

ـ الذل ، العبودية ، الخوف ، كل ذلك قد أفسدنا حتى النخاع • فأصبحنا لا نشبه البشر •

فقال له شول آمرا :

ـ اخرس

فأجابه الاحمر بقوله :

ـ أنت لا تريد أن تسمع كلامي لانه يغيظك .

فما كان من شول الا أن قذفه بطلقات من هاجر القول .

فقال الاحمر عندئذ :

ـ هذا أنتم . انني أعرف ما يحس به من كان على شاكلتك من الناس .

واحمر وعرق . وكان الحائكون يصيخون اليه الآن اسماعهم بغير ضحك .

ـ انكم لا تنتظرون الا لحظة انقضاض ، غير أنكم لا تنقضون الا حين لا يكون هناك أحد يحول بينكم وبين ذلك . حتى اذا لم يكن هناك أحد أخذتم تزأرون حتى الموت . انكم تنكوون ثم تنكوون بأحقادكم ومذلاتكم يا أيها المهـانون . غير أنكم لا تفعلون في أثناء ذلك شيئا يحميكم من اولئك الذين يهينونكم. انكم تقبعون كالبق منتظرين ان يحميكم غيركم . حتى اذا جاء يوم اقتسام الغنيمة خرجتم من اجحاركم خروج الحيوانات تجتذبها رائحة جثة . انكم متى استطعتم أن تنتقموا في أمان ، أصبحتم كالوحوش الكواسر . ألا انني لا اريد ان ارى افواهكم في ذلك اليوم .

ـ حاذر أن تتجاوز الحدود ، فينتقموا منك في ذات يوم .

قال حمدوش :

ـ من هم ؟

وأخذ يكيل الشتائم لزملائه الحائكين • ثم قال بصوت محتقن بالاحتقـار :

ـ أوضار • ان هذا الكهف شر من مجاري الاقذار ، انه العفن بعينه •

ثم ضرب بطرف سبابته السيجارة المحترق نصفها ، التي كان قد قدمها اليه عمر ، فطارت الى بعيد •

ـ آه ••• ما أشد تفسخ المرء في هذا المكان ! •• انني في بعض الاحيان لا ادري ما الذي يمكن أن أفعله ••• يخيل لي في بعض الاحيان انني لا أتورع عن أن أرمي كل شيء في الهواء•

كانت أمسية رائقة ، تهب عليها نسمات دافئة •• أمسية يقظة خفية مثقلة بجو من الوقوف في ختام مرحلة من السير • الناس يعودون الى بيوتهم • انهم يقطعون الشوارع وهم يحملون تحت الابطين خبزا أو مؤونة • ان في أخشن الوجوه تعبيرا حـادا يرهفهـا •

وكان الشابان قد صمتا لا يقولان شيئا •

دمدم حمدوش يقول :

ـ آه ••• ليت جميع هؤلاء الذين يمرون هناك كالسائرين في نومهم ، ليتهم يريدون ان يستيقظوا •••

وصافح عمر صديقه ، وغار في الشوارع الضيقة المضاءة نصف اضاءة .

ونام في تلك الليلة ، غير ان فكره لم ينم . كان فكره يكبب شلة من تلك الشلل المتشرجة المليئة بالعقد التي لا يرى المرء مثلها الا في كابوس . وما لبث ان سمع صوتين يتحادثان فيه ، هما صوته وصوت شخص آخر ، صوته وصوت ظل كبير يحمل انفاس المجهول . ومن عجب ان في هذا الصوت نبرات تذكر بنبرات الاحمر . وأخذ الصوت يلهث . ان عمر لا يستطيع أن يفهم هذه الكلمات التي يقذفها ذلك الصوت في الفضاء . وعندئذ تفجرت في رأسه الحقيقة . « ان حمدوش يريد ان يُعد العدة للقيام باغتيالات ، ويقتضيني بل يأمرني أن أشارك في ذلك » . وانقطع الخيط فجأة . وأصبح عمر لا يسمع الظل . ولامست جبينه ريح بيضاء من ريح السحر .

* * *

— ٩ —

سارا في ممر يصطف على جانبه صفان من اشجار الجوز الهرمة ومن أشجار الدلب ، على حافة البركة الكبيرة • ان الاشجار التي أخذت تورق تشكل فوق رأسيهما قبة من خضرة كثيفة مهتزة • فلما صارا في منتصف الطريق جلسا على مقعد ••• وكان المساء يوشك أن يهبط •

كانت عينا حمدوش تسطعان ببريق ما ينفك يزداد ، فربما كان مرد ذلك الى الساعة التي هما فيها من النهار • وأدرك عمر من ارتجاف شفتيه أن به رغبة جامحة في معالجة الموضوع الذي كان يشغل باله ، الا ان هناك حائلا يقف الكلمات على شفتيه • قال فجأة وهو يسحق بقدمه عقب سيجارة كان على الارض •

ــ مم تخاف حين أكلمك ؟ هه ؟ مم تخاف ؟ أأنت تسيء الظن بي وتحترس مني •

فقال عمر ، وقد ادرك اخفى ما يجول في خاطر رفيقه من افكار :

ــ ما من أحد يخطر بباله ان يهدم اي شيء قبل ان يوقن من انه سيُحل محله شيئا آخر أفضل •

فنظر حمدوش الى الارض بين قدميه عابسَ الوجه • ثم رفع رأسه كمن عثر على فكرة فاتته حتى ذلك الحين ، وقال :

ـ ولكن ليس من الشرف في شيء أن نقول عن أمر من الامور : « اننا لا نريده » ثم نحن لا نفعل شيئا من اجل القضاء عليه • ليس من الشرف في شيء ان نتشكى ، ثم نحن لا •••

ومرت في تلك اللحظة سيدة ترتدي ثوبا خفيفا من ثياب الصيف ، ووراءها طفل يتعثر في مشيته ، وهي تتابع خطواته بنظرة تفيض افتتانا •

فلما صارت أمامهما القت نظرة سريعة على عمر وحمدوش ، فاذا بوجهها ينقبض انقباضا غريزيا ، ثم حولت عينيها عنهما ، غير أن عمر أحس بما فيهما من اتقاد قاس •

سأل حمدوش صاحبه بصوت خافت :

ـ أرأيت كيف نظرت الينا ؟

ـ رأيت ، فماذا ؟

ـ أنا يستحيل علي ان اطيق هذا • لن ارضى في يوم من الايام ان ينظر اليّ احد هذه النظرة •

قال ذلك وقد علت نبرة كلامه •

ـ اني هنا في بلدي ، ولاجعلنهم يدفعون ثمن هذه النظرة •

وصمت الاحمر وقد اربد وجهه •

ان ذلك كله يزعج عمر • انه لا يشتهي الآن ان يدخل في أي حديث • كان يقرأ أمامه ، على الطرف الثاني من البركة ، كلمات

كتبت بأحرف كبيرة خرقاء : « السوفيت في كل مكان » . ان هذه الكلمات المكتوبة يرجع عهدها الى عدة سنين خلت ، وقد سبق لعمر ان رآها هنالك . وما تزال الى الآن . ان القطران الذي كتبت به قد ابيض . وظل عمر يقرأ هذه الكلمات ثم يقرؤها ويقلّبها في رأسه ويفكر فيها ويحلم .

سأله الاحمر وهو يضرب الارض بقدمه :

ــ ولكن ... أنت ... ما رأيك أنت ؟

فصحا عمر من تأملاته ، وفهم ان معنى سؤال كهذا السؤال هو التالي : « أنت ... ماذا تنوي أن تفعل ؟ » .

فتفرس في الاحمر مستطلعا ، فآلمه أن يراه على هذه الحال .

ــ رأيي انك تضايقني ، وأنك لن تقوم بأي عمل نافع ما ظللت تريد ان تمضي الى العراك وحدك ، وأنك أيضا لن تجني شيئا من محاولة جرّي اليك بالقوة ، فأنت بذلك تضيع وقتك سدى . اذهب وافعل ما يروق لك ، ولكن اتركني وشأني . ورأيي من جهة اخرى انني لست أنا محلّ اهتمامك في هذه القضية ، فأنا أعلم أنك لا تؤمن أنت نفسك بما تقول ، وأنك انما تستدرجني الى الكلام من أجل ان تصل الى شيء من الايمان .

ــ مماحك .

ــ قل ما تشاء . لقد سألتني رأيي فبسطته لك . فلا تضجرني بعد الآن بأسئلتك . ودعك ، خاصةً ، من محاولة جري اليك ، فذلك جهد ضائع ، وهأنذا قد أنذرتك .

كان حمدوش يبتسم ابتسامة خفيفة لا ترى ، وقد تاه نظره . فاضطرب عمر . ان قلقا خاطفا قد قام في رأسه ، فدفعه عمر عنه . ما عسى يستطيع الاحمر ان يصنع به ؟

غير أن حيرة مبهمة تغزو نفس عمر ، ثم لا تبارحه رغم ما يقوم به من جهد لطرد تلك الافكار من ذهنه .

غمغم حمدوش يقول بهيئة الطفل العنيد :

ـ اسمح لنفسي بأن أعتقد أنك ستغير رأيك في ذات يوم . وستتذكرني عند ذلك . وربما يكون الاوان في تلك اللحظة قد فات .

ـ دعك من هذا الحزن كله ، اضحك قليلا . الايام آتية .

فقال الاحمر في خشونة :

ـ يعجبني أن أكون كما أنا .

ونهض .

فنهض في اثره عمر ، وتابعا طريقهما بحيث يدوران حول الاسوار ليدخلا المدينة .

فلما صارا في الطريق الكبرى غشّاهما التراب الابيض الذي كانت تغوص فيه السيارات وهي تجري مسرعة . هذه ضاحية ثرية حافلة .

دخل الصديقان المدينة ، فاستقبلتهما الحرارة الخانقة التي تنشرها الجدران الحامية . وهبط الليل .

— ١٠ —

حل تشرين الاول • ثم حل تشرين الثاني • لم ينقض الصيف ، وما يزال قيظه مشتعلا • استمرت الحياة في الكهف على حالها لم تتغير • المعمل يغوص في الضجر والسأم رغم وفرة العمل ، ورغم الجلبة الابدية التي لا تنقطع • كان حمدوش ما يزال يتغيب كثيرا ، وكان ذلك يثير في شول تعليقاته الغضبى •

في يوم الاثنين ذاك ، كان جميع العمال يتحركون صامتين ، غير أن بهم تلك الشراسة وذلك الاعياء المألوفين في كل صبح من أصباح أيـام الاثنين • ومرة أخرى لم يكن حمدوش قد أتى •

قال ماحي بوعنان شاتما ، حين مر بالمعمل في منتصف النهار :

ــ ما الذي جرى له أيضا ؟

فأجابه شول ساخرا :

ــ كان في قصف ومجون •

لم يصدق عمر هذا • وأمره المعلم في حدة ان يمضي اليـه مستطلعا أنباءه •

فلما دخل عمر الى مسكن حمدوش ، استقبله صاحبـه في حماسة ، فكأن رؤية الفتى تخفف عنه • وقد لاحظ الفتى منـذ

النظرة الاولى ما كان فيه صاحبه من اضطراب ، فلم يلق عليه أي سؤال .

نظر عمر الى صديقه . كان حمدوش يسير في طول الغرفة وعرضها وقد وضع على كتفيه معطفه الواسع الكالح ، وفيما هو يذرع الغرفة على هذا النحو كان يلقي على عمر نظرات غير مألوفة. انه بوجهه العابس ولحيته التي لم تحلق منذ اسبوع ، أشبه بسجين . ثم أخرج من جيبه قطعة من مشط ، وتوقف عن سيره ، فجلس على حافة الصندوق الخشبي ، وأخذ يفكك شعره الاشعث العنيدَ الخِصل ، دون ان يولي صاحبه انتباها .

كان الزقاق الصغير المتاخم لمسكن حمدوش صامتا مقفرا حارا . فاذا بهذا الصمت نفسه يخيم في المسكن ايضا ، بينما الاحمر يصفف شعره الكث بضربات صغيرة ، مشعثَ الرأس كالح الوجه لا تعبر هيئته عن شيء .

قال عمر يسأله :

ــ كيف الاحوال يا حمدوش ؟ لقد سأل المعلم لماذا لم تأت الى العمل ؟

فأجاب حمدوش :

ــ مسألة صعبة . هذه أول مرة ارتكب فيها سرقة ...

وضحك . ثم أضاف :

ــ تعوزني العادة .

كان يتكلم كمن يهذي • لم يكن يمزح ، ذلك واضح في قسماته المحمومة •

ــ مسدس اوتوماتيكي • هه ، ما رأيك ؟

وكان عمر يرقبه دون ان يفتح فاه بكلمة •

ــ ولكنني أوشكت ان يُقبض عليَّ •

كان واضحا ان الاحمر يقول الحق • وقامت في نفس عمر رغبة قوية في أن يتحداه • ولكن لا ••• لن يقول له « انه لا يصدقه » ، لان الحقيقة التي ينتظر ان يسمعها لا يطيق احتمالها •

شيء لم يكن قد فهمه الى ذلك الحين يتكشف الآن لباصرتيه : هو هذا الهوى الجامح الحي المحرق الذي يسكن نفسَ حمدوش •

ومضى عمر يتكىء بكوعيه على النافذة ، وظل يرقب صديقه صامتا • ما يزال الاحمر يفكك شعره الحرون • قال وفي شفتيه ابتسامة ملتبسة :

ــ هوه ! لا تبحث ! ليس السلاح هنا !

ثم انطلق يضحك ضحكة صغيرة متقطعة •

ــ في رأيك أنت أن ما فعلتُه ليس بالفعل المحمود ، أليس كذلك ؟

ولكن عمر ظل صامتا لا يجيب • قال حمدوش وهو مدير اليه ظهره :

ـ قل انه ليس بالفعل المحمود ، اذا كان هذا هو رأيك ...

فحاول عمر أن يجيبه فقال :

ـ ليس هذا ما أفكر فيه ...

ـ فيم تفكر اذن ؟

فشعر عمر بمزيد من الارتبـاك ، انه يجد عناء كبيرا في استجماع أفكاره . قال :

ـ لست ألومك على شيء

ـ ففيم هذا الوجه المكفهر اذن ؟

ـ ستصبح وحيدا ...

ـ هذا لن يبدلني كثيرا .

ـ سينصرف الناس عنك .

فحاول حمدوش ان يضحك ، لكنه لم يستطع . ولم يزدد وجهه الا قسوة .

ـ أنت تؤثر الوعّاظ ، لقد علموك ان تحب الكلام يا عمر .

ـ ما يدفعك الى قول هذا ؟

ـ اني أعرف ذلك .

قال حمدوش ذلك وهو منحن قليلا ، يشبه ان يكون وضعه وضع حيوان محاصَر .

ـ القول أجمل من الفعل وأسهل .

ثار عمر وقـال :

ـ أنا ذاهب .

فدهش حمدوش . فأدرك عمر عندئذ ما في سلوكهما من غرابة . وتمتم الاحمر يقول بصوت خافت :

ـ لسوف تشكرني في يوم من الايـام .

وشزر عمر مرة أخرى ، وقد أثقل جبينه بالغضون والتمع بياض عينيه التماع جوف الصدف .

ـ أشكرك على ماذا ؟

ـ ستفهم ذلك فيما بعد .

ثم عادت تلك الابتسامة المتشنجة نفسها فظهرت في وجهه .

أدرك عمر أنه لم يبق له ما يفعله هنا ، فاتجه نحو الباب ، غير أنه ألقى على صديقه نظرة أخيرة ، وهمت أن تخرج من بين شفتيه كلمة مصالحة ، لكنه حبسها ، وانصرف . ولم يلتفت اليه حمدوش أثناء ذلك .

فلما عاد الى الكهف قال انه لم يجد الاحمر في بيته . فهتف شول شاتما :

ـ يا للفاسق الذي لا يعرف غير اللهو والمجون !

* * *

— ١١ —

كان عمر قد فرغ من طعامـــه ، فنهض يريد ان يذهب الى الصبيين الآخرين اللذين كانا يلعبان لعبة « الخف » ، بينما كانت الجدران والقبة ترجع ضحكاتهما وصيحاتهما ، فاذا به في هذه اللحظة يهتز اهتزازا قويا من ضربة هائلة بقبضة يد هوت على ظهره ، وتلتها على الفور ضربة ثانية تقطعت من حولها أنفاسه ، ووقع على الارض من شدة الالم ، فرأى حمدوش يتفرس فيه ، فقال له في أنين :

ـــ أأنت ضربتني ؟ ماذا صنعت لك ؟

فاذا بحمدوش يبصق عليه • فصاح عمر :

ـــ ماذا بك ؟

ثم اطلق من صدره آهة توجع ، واسند ظهره الى أحد الانوال ليستطيع أن يتنفس •

فلما رأى حمدوشَ صامتا ، أعول يقول له :

ـــ ماذا أصابك ؟

فاذا بحمدوش يهجم عليه ، ويقبض على حلقه في وحشية ، وينفخ في وجهه قائلا :

ـ لارسلنّك الى القبر .

وأخذ يهزه هزا بلغ من القوة ان الفتى احس بعظام عنقه تقضقض بين يديه . وأراد ان ينتزع نفسه من قبضة يده ، فاذا بالاحمر يهوي بها على وجهه ، في لطمة طاش لها صوابه ، وأخذ الدم يسيل من فمه .

ـ تريد أن اقول لك ماذا صنعت ؟ الصوف الذي كان عليك ان تهيئه لي ، أين هو ؟ أتسخر مني ؟ لاقتلنك .

قال حمدوش ذلك وهو يلقي عليه نظرات هاذية .

وأحس الصبي بمذاق الدم في فمه حامزا ، فمسحه بيده على نحو آلي دون وعي ، وأقعى يبحث عن شيء عسى ان يعثر به على الارض ثم نهض وفي قبضتي يديه قضيب من حديد ، رفعه فوق رأسه ملوحا به ، وصاح يقول لحمدوش :

ـ اقترب مني ان استطعت ياحمدوش .

كان عمر يسمع خفقان قلبه ضربات قوية متباعدة ، وكأن تنفسه قد وقف ، ان بردا كالثلج قد استولى عليه .

امتقع وجه حمدوش . وقال :

ـ أترك هذا .

ثم اختنق صوته .

حدث عمر نفسه قائلا : « لقد خاف » ، ثم هوى بالقضيب

الحديدي الثقيل بكل ما اوتي من قوة ، لا يعرف أين تقع الضربة . فاذا بحمدوش يئن أنةً طويلة غريبة ، ويتهاوى على الارض تحيط به مكاب الغزل وتوثقه .

فقفز شول عن نوله ، ووثب على عمر يمسك به من الكتفين ، وصاح متلعثما :

ـ يا شقي ، يا شقي ، يا شقي ....

لم تسعفه قريحته بكلمة أخرى ، غير أنه كان كلما نطق بحرف من هذه الحروف لطم الصبي على رأسه لطمة . وقام الاحمر في هذه اللحظة ، فاذا هو يمزق القميص الذي كان يكسو لحم عمر ... يمزقه بحركة واحدة من أعلاه الى أدناه . ثم دق وجهه بقبضة يده ، وهشم أنفه فأخذ الدم يسيل منه ، وظل يضرب ويضرب ... كانت عيناه عيني مجنون . وكان في عينيه من الظمأ الواضح الى القتل ما جعل الفتى يصيح بالحائكين وهو يحس بالخطر احساسا عجيبا :

ـ والآن ، اقتلاني ، اقتلاني .

كان مقتنعا بأن كل احتجاج لا يجدي ، وان كل حركة يحاول أن يقوم بها دفاعا عن نفسه لن تنفعه . وفكر في عكاشة فتذكر هذه الفكرة من افكاره : « في بلادنا ، اذا استطاع الانسان ان يحيا ، وان يبقى حيا ، فقد انتصر » .

وصل ماحي بوعنان دون ضجة ، ويداه مضمومتان فوق بطنه . ان الانوال واقفة ، كلها .

وان وجوه الحائكين مخيف منظرها • وكان المعلم قد هبط درجات السلم قبل ان يلاحظ احد من العمال حضوره • فوقف في وسط المعمل • واخذ ينظر الى العمال واحدا بعد واحد وهو يقلب ابهامي يديه • فلم يخطر ببال أحد ان يوجه اليه تحية •

وكر حمدوش على عدوه مرة أخرى بغريزته ، فلما رأى ماحي بوعنان سقطت يداه ، وجاء المعلم اليه يملأ المكان كله ، وأخذ يكيله بنظرته • وهرع عمر ، مرتعشا دامي الانف والفم ، فاقترب منه وتمسك بذراعه • انه لا يسمع شيئا من الكلام الذي يقال ، كأنه أبله •

سأل ماحي بوعنان وهو يميل برأسه الى جهته :

ـ هو ؟

فقال له شول :

ـ نعم •

فأمسك المعلم بأذن الصبي فقرصها ، وهو يتمايل على نفسه ثم جعل يجره الى ان وصل به الى أول الدرج • لقد هدأت الجلبة أثناء ذلك ، واستأنفت الانوال حركتها الصماء •

قال ماحي بوعنان لعمر :

ـ اذهب ••• ولا ترني وجهك في هذا المكان بعد اليوم •

لم يعرف عمر كيف صعد درجات السلم ، ولا كيف اجتاز الشارع قدما حتى وصل الى عين الماء • لقد لاحظ أثناء خروجه عددا كبيرا

من المستطلعين قد ازدحموا امام الكهف واضعين وجوههم على مربعات الشباك ، فلما رأوه حاولوا أن يسألوه عما حدث في الكهف ، ولكنه أفلت منهم .

حتى اذا وصل الى عين الماء أخذ يغسل وجهه . وبصق ، فاذا بسنين تسقطان من فمه . فشعر حين رآهما بحنق شديد ،وصعدت الدموع الى عينيه .

* * *

— ١٢ —

ما ان طلع الفجر حتى كانت الجارات تتفرق في الفناء ، أو تستقر عند عتبات الغرف ، أو تضطرب في المطبخ المشترك تغسل الاطباق التي بقيت من الليلة البارحة • ان جلبة آخذة في التزايد تصحب هذه اليقظة ، فالاحاديث تكثر والاطفال يغزون الاروقة عصابات ، ونشاط طافح في الدار الكبيرة من مكان الى مكان ، وسط صمت الساعات الاولى من النهار وهدوئها •

النساء منهمكات في اعمالهن ، وقد شمرن اطراف غلائلهن وعلقنها بالحزام ، وأخذت سراويلهن العريضة تصطفق بين السيقان • انها لمخلوقات عجيبة ، لا تعرف الراحة ، ولا تنقطع عن الصياح لحظة الا لتضرب اولادها ، ثم تذهب وتجيء في طول الدار وعرضها مشغولة مثرثرة •

كانت جهود عمر متركزة كلها على رغبة واحدة : هي ان ينام وقد قاوم في شيء من الغيظ • كان يصغي الى احاديث ، ويتعرف أصواتا ، ويسمع ضجات يسند الى كل منها معنى • وتبعثر منذ تلك اللحظة فلم يمكن ان يغمض له جفن •

ان دار سبيطار لم تتبدل • غير أنه اليوم يعرف قيمة الاشياء التي تجيء وتذهب والاشياء التي تبقى •

لقد نام وهو صبي ، أما الآن فانه لا يصحو طفلا بل رجلا يقابل قدره وجها لوجه .

في الليلة البارحة ، حين رأته أمه عيني يدخل البيت وهو على تلك الحالة التي يرثى لها ، أصابها في أول الامر رعب ، فاذا هي ، من قبل ان تعرف ماذا حدث ، تأخذ تولول ناحبة نادبة :

ـ هاهاي . هاهاي . بني . ماذا صنعوا يا بني ؟

فلما قص عليها عمر الخبر ، قالت تحلف :

ـ والله لاقلعن عيونهم .

وأخذت تتوجع وتتأوه في عنف .

ـ ابق هنا . لسوف أريهم كيف تكون الاساءة الى عيني وابنها .

وظلت عيني تصغي الى كلام ابنها حتى فرغ من حكاية القصة كلها ، فهرعت عندئذ الى الرواق الذي يطل على الفناء ، فصاحت تقول لجميع سكان المنزل :

ـ أنظروا أيها الناس ماذا فعل أعداء الله بابني .

* * *

نهض عمر وخرج ، فلم تقل له أمه شيئا حين رأته يذهب . آراد أن يتجول في الشوارع كما كان يتجول من قبل . كان

يتراءى له حتى ذلك الحين ان كل شيء في الحياة واضح ، وان كل شيء في الحياة بمكانه • غير ان هذا النظام الاعلى قد اضطرب الآن • أهو اضطرب في نفسه ، أم في المدينة ، أم في العالم كله ؟ انه لا يعرف ذلك • كل ما يعرفه هو ان الامور ليست كما كان يظن • كان في صدره شيء ينقبض • انه يسير وهو فيما يشبه الحلم • حركة الشوارع تصل اليه ضعيفة ، ولكنها في الوقت نفسه تطيش بصوابه • انه يسير في حذر كأنما هو يخشى ان تحل كارثة من الكوارث على حين فجأة •

جمهرة المتسولين الغائرة وجوههم ، الذاوية عيونهم ، ما تزال هي نفسها تملأ المدينة • انهم لا ينتظرون شيئا من احد • يسيرون ثم يقفون ، ولا يبدو عليهم انهم يكترثون بما يفعلون • وهم يتكدسون في بعض الاماكن تكدس أناس يحيطون بميت ، ويلقون على سكان المدينة نظرات عميقة ساكنة •

تأمل عمر العياء الذي يسمِّرهم في الارض • لاحظ القلق الذي يجوف خدودهم ، على أنها جوفاء ، ويسن أعراف أنوفهم • وشيئا فشيئا فهم • أين ذهبت القوة التي كانت تتدفق في كثير منهم يوم كان حميد سراج يتحدث اليهم في مقر الشارع الواطىء ؟ وتأملهم عمر • ماذا حدث اذن ؟ وتذكر المعمل ، والحائكين ، ثم صرف عن ذلك ذهنه • وفكّر مرة أخرى في حميد سراج الذي ما يزال سجينا في أحد معسكرات الاعتقال ، هناك في الجنوب •

وفي هذه اللحظة وقع بصره على حلقة من المتطلعين المبهوتين

.. ان امرأة فارعة القامة نحاسية اللون مستطيلة الوجه كانت جالسة في وسط الرصيف لا تتحرك ، وقد بلغت أسمالها الرثة من القذارة ان الناظر اليهـا يحسبها خارجة من حمام وحل ، وعلى رأسها وكتفيها منديل ملطخ لا يقل سواده عن سـواد سائر خرقها . ان نظرتها تثير فضول المارة كأنها صرخة . فالحشد الصغير يحيط بها دون ان ينطق أحد بكلمة .

وقف عمر على أصابع قدميه متطلعا ، فرأى امام المرأة كائنا صغيرا مقمطا برثث وسخة راقدا على الارض . كانت المتسولة واضعة احدى يديها على فمها ، وهي ساكنة لا تتحرك . وكـان الرجال والنساء والاطفال ينظرون اليها ، خرسا لا يتكلمون . ثم اهتز رأسها بحركة خفيفة ازاحت منديلها قليلا ، ومالت الى امام ثم قالت بصوت عذب استغربوا جميعا ان يصدر مثله عن هـذا التمثال المقدود في خشب :

ـ الله يحميك يا ابنتي الصغيرة ، لم يحن أجل الموت بعد .

وغمرت الرضيع بنظرة حزينة . ثم هزت رأسها ومدت يديها الى الطفلة فتناولتها ، واستغرقت عندئذ في تأمل الوجه الصغير . كان واضحا ان هذه المرأة تجهل ان جمهورا من الناس يحيط بها ويرقب حركاتها ويلتقط كلماتها . ووضعت شفتيها على الشفتين الصغيرتين البريئتين ، ثم أرقدت حملها البارد الاصفر على الارض أمامها حيث كان . وفي هذه اللحظة القت على ما حولها فجأة ، وهي تضغط على خدها باحدى يديها ، نظرات تائهة . وأخذت

عندئذ تتأوه تأوهات قصيرة ولكنها ما لبثت ان صمتت ، كأنها هي قد غيرت رأيها . وعادت فتناولت يدي الطفل المنطويتين فربتت عليهما في حنان . وظلت على هذه الحال بضع دقائق لا تفعل غير ذلك . وظل شيء من اليأس يُقرأ في وجهها خلال لحظة ، غير ان السحابة ما لبثت ان تبددت ، فلم يبق منها أثر . ودمدمت المرأة تقول :

ـ ستفهمينني يا بنيتي حين تبلغين من العمر ما بلغت .

وظلت تكلم الرضيع المتثلجة مدة طويلة ، في رقة وبلاهة . لم يستطع عمر ان ينتزع نفسه من هذا المشهد الا في عناء . وردد يقول دون ان يعرف السبب الذي يدفعه الى ذلك : « فات الاوان. فات الاوان » .

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى دوت في الشارع صرخة ليس فيها شيء انساني . فأخذ الناس يركضون .

* * *

— ١٣ —

جثم الارق في تلك الليلة على صدره كحيوان مفترس • لم يكن كل شيء قد نام بعد : فمن الشارع ما تزال تصاعد ضحكات وأحاديث ، ومن مسافة بعيدة تترامى الى السمع الحان شبابية شاكية ، ومن الزقاق الضيق القريب يصل صوت أحد السكارى وهو يحاول أن يكمل غناء أغنية بطيئة حزينة ، ولكن صوته الكثيف الربل ما ينفك يعود الى كلمات بعينها فيتعتعها في عناد :

أصبحت وحيدا منفردا
لا تصحبني الا نفسي •

ويتوقف المغني عن الغناء بعد الكلمة الاخيرة ، فيحسب السامع من طول توقفه أنه قد عدل عن المضي في غنائه • ولكنه ما يلبث ان يستأنف ترنمه بعد ذلك ، بتلك الكلمات نفسها •• ان عمر لا يستطيع ان يحصي عدد السنين التي ظل خلالها يسمع هذا الصوت المخمور في مثل هذه الساعة من الليل • انه محمد شراق يسكر ويجيء يغني هذا الغناء في كل مساء :

أصبحت وحيدا منفردا
لا تصحبني الا نفسي •

واتسع الصمت • ان كل شيء قد نام الآن • الا هذا الصوت

العنيد • انه يظل يثأثي وفي نفسه أمل حزين في ان يصل من الاغنية الى ختامها • جلس عمر الى مرقده ، وتأمل السماء من خلال الباب المفتوح • ان ضياء هذه الليلة يشبه ان يكون ضياء نهار • ومضى عمر يجلس على الرواق المتاخم للغرفة ، وراح يعد النجوم الغارقة في بياض كأنه اللبن ، ثم لم يستطع ان ينتزع نفسه من فتنة هذه الليلة الساطعة كل هذا السطوع •

وحدق بعينين واسعتين مغسولتين ، الى الاكتاف الكثيفة من المباني المنتصبة على مقربة من البيت ، ولكن نظراته سرعان ما عادت تصّاعد الى النبع المترقرق ، السماء ، حيث تصطفق النجوم ، واذا هو يقول مخاطبا نفسه : « لم أعد ادري من أنا •• »

انقطع شراق عن الغناء ، فهو يتكلم الآن بصوت رصين خافت• فكر عمر في عكاشة ، وتساءل أين عساه يكون ، في هذه الساعة ، ذلك الحائك الذي آثر ان يهجر النول ، وان يحمل عصا المسافر وجرابه •

وفكر عمر بعد ذلك في حميد سراج • لكأن صوت شعب بأسره قد سكت ، منذ سُجن حميد سراج في معسكر من معسكرات الاعتقال • اصبح المرء لا يرى بعد ذلك الا جماهير خرساء ، خائفة • اصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس بخطر كانت جاهلة به • وازداد حذر الناس •

شعر عمر برعشة تسري في جسمه بغتة • ان برودة نافذة قد هبت في الفضاء • فحمل عمر المخدة التي كان متكئا عليها وعاد

الى الغرفة التي تترجع فيها أنفاس أختيه وأمه مطردة هادئة . واستلقى على مرقده وغفا ، تسهر عليه هذه الليلة الراكنة الجميلة.

حتى اذا صحا في الغد أحس برغبة مفاجئة في أن يمضي الى صفصف يستحم في النهر الصغير . انه لم يذهب الى هناك منذ مدة طويلة ، ربما منذ سنتين . فما كان اشد فرحة بالعودة الى الريف . شهر تشرين الثاني يشعل شموعه في ذروة السماء . والاراضي الراقدة تهتز في هدوء ورفق ، خفيفة خفيفة ، كأنها تهم أن تذوب دخانا . النهر يتسع في هذا الموضع ، ويجري كسولا تحت ظلال أشجار البطم الكبيرة ، بين كثث الاعشاب المتوحشة . وفي الفضاء ترين طمأنينة رحيبة تخددها ضجات بعيدة تقرع الهواء . ولكن أذن عمر غارقة في الهمهمة الغامضة ، فما يدرك منها شيئا . لقد رقد على العشب الخضير بعد أن ظل يخوض في الماء مدة طويلة ، فهو بين الغفو والصحو ، والزيزان تتصايح من حوله في كل مكان ، فصريرها يذوب في الفضاء الرنان الذي يغمره ، ثم ينسكب في أعضائه ، فيخدر شعوره .

واربدت السماء . وعاد عمر الى الماء . وفجأة اشتد ذلك الاهتزاز العنيد الذي كان يقتحم الهواء منذ لحظة ، ثم اذا هو يصبح ضجة تملأ الفضاء . لكأن هذه الضجة تخرج من اعماق الارض . وما هي الا لحظة حتى بدا أن الافق هو الذي يهتز . فوقف عمر في الماء وأصاخ بسمعه ، ثم خرج من النهر بعد بضع ثوان .

فما كاد يخرج حتى رأى سيارة من سيارات النقل عليها جنود تقف في الطريق على مقربة من النهر ، ثم يثب منها أحد الجنود ، ويقترب • انه في ريعان شبابه هذا الرجل الطويل ، النحيل قليلا ، الضيق الكتفين • وها هوذا ينظر الى عمر بعينين زرقاوين مبتسمتين • ان في قسمات وجهه تعبيرا عن صراحة كصراحة الاطفال ما تلبث أن تثير في النفس المودة والمحبة • ومما يزيد ذلك التعبير وضوحا هذا الشعر الاشقر المقصوص حول الرأس كله ، الا خصلة صغيرة متهدلة على الجبين • لاشك ابدا في أنه أجنبي ••• ولكن ليس بينه وبين الاوربيين القاطنين في هذه البلاد الا شبه ضعيف • لم يقل الرجل شيئا ، واكتفى بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشوكولاته مع راية صغيرة عليها نجوم • غير أن رفاقه الذين ظلوا في السيارة لم ينقطعوا عن الجمجمة والصياح فرحين : « هالو ••• هالو ••• ، » ولا عن التلويح للفتى باشارات تعبر عن الصداقة • وكان عمر يلاحظهم مبهوتا ويلاحظ الرجل الواقف أمامه ، ناسيا أنه عار كل العري •

تناول لوح الشوكولاته من يد الرجل الاجنبي دون تفكير ، ثم هرع الى الماء وغطس غطسة • وانطلقت على الضفة هتافات ، فجرت السيارة تهدر هديرا يصم الآذان ، وغابت وراء سحابة من الغبار ، تتبعها سيارة اخرى ، ثم سيارات فسيارات ، متشابهة كلها ، محملة جميعها بجنود يلوحون بأيديهم ، وعندئذ ، خلال البرية ، التي يهدر في كل مكان منها ، ويترجع في مكان منها ،

الرعد الذي تحدثه أصوات محركات السيارات ، ارتفعت صرخة تقـول :

ـ الا ... مر...يكان ....

فاذا بقلب عمر يثب من صدره في فرح مجنون . ان أملا مستحيلا يمسك بخناقه فاذا حلقه يتشنج واذا هو يحس أنه يهم أن يبكي .

وخرج من الماء ، فارتدى ملابسه ، وعاد يسير في الطريق المؤدي الى المدينة ، جادا مفكرا ، لاشك أن شيئا هائلا قد حدث في العالم . كان يسير بخطى سريعة ، حتى ليكاد يركض ركضا ، وقد انشدت قامته بسروال طويل أزرق ، وسترة ضيقة ، وانتصب فوق جسمه الطويل المهيأ للتخلع بطبيعته من قبـل ذلك ، رأس حاد تتقد فيه عينـان صغيرتان سوداوان . أمـا جبينه المستقيم المنبسط فكان أشبه بآجرة كثيفة قامت فـوق الحاجبين تظللهما كشة من شعر خشن . وكانت أجفانه تصطفق على ايقاع سريع ، وكانت نظرته تقفز من شيء الى شيء آخر ، وكان في وجهه تعبير عن جد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا .

* * *

٢٠٠٠ – ١٩٦١/٣/١٥

٥٧١٤

نشر وتوزيع
مكتبة أطلس
دمشق

الثمن ٢٥٠ ق.س

WERT
BOOKBINDING
MIDDLETOWN, PA.
NOV. 82
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 054331176